INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

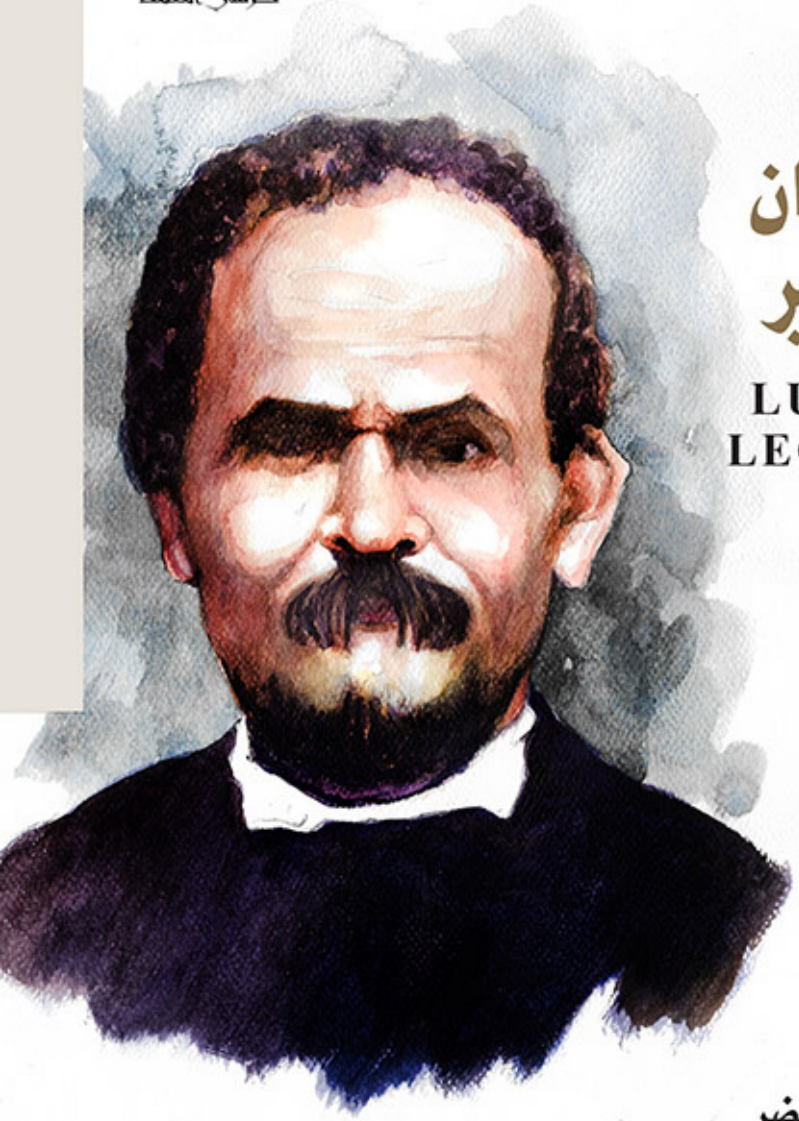

لوسيان لوكلير

LUCIEN LECLERC

فاطمة الأخضر

100 كتاب وكتاب
26

لوسيان لوكلير

الكتاب : **لوسيان لوكلير**
المؤلفة : **فاطمة الأخضر**
الطبعة : الأولى 2021
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2021MO2344
الترقيم الدولي : 978-9920-627-96-2

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

لوسيان لوكلير

فاطمة الأخضر

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبة..... 7

مقـدمـة..... 9

I- حياته وتكوينه العلمي..... 11

II- أهمّ أعمال لوسيان لوكلير..... 32

1. مؤلّفه في "تاريخ الطبّ العربي"..... 32

2. تـرجمـــاتـه..... 37

3. منهجه في كتاب "تاريخ الطبّ العربي" وفي الترجمات... 53

III- مقتطفات من كتاباته..... 66

1. كتاب تاريخ الطبّ العربي..... 66

2. مرض الجدري بين الأسطورة والتاريخ..... 89

3. ردّ لوكلير على رسالة "موهل"..... 94

IV- مقتطفات من آراء بعض النقاد الغربيين والعرب..... 103

الخـاتـمة..... 119

المصادر والمراجع..... 123

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة على

مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

مقدمة

لوسيـــان لوكلير[1] Lucien Leclerc طبيـــب مستشـرق من مستشرقي القرن التّاسع عشر؛ بل هو مستشرق - مستعرب بامتياز لاهتمامه البالغ باللّغة العربية وتعمُّقه فيها وترجمته منها إلى الفرنسية ترجمة مختصّة في الطبّ أفضت به إلى تأليف أشهر كتبه "تاريخ الطبّ العربيّ" باللّغة الفرنسيّة.

وقد عدَّ فرنسوا بويون[2] François Pouillon المستشرقين الذين كتبوا باللّغة الفرنسية فوجدهم ألفًا، عرضهم في معجمه، وعرّف بالاستشراق وعصره، وصنّف المستشرقين إلى أصناف في قوله: « عرف الاستشراق أوجَهُ في القرن التاسع عشر، وكان معاصراً للتوسّع الإمبريالي. لهذا السبب كان، منذ نهاية الإمبراطوريات

(1) ترى المؤلفة أن كتابة الاسم بالعربية يكون "لوكلار" ولكن لأن كتابة اسمه في مؤلفاته المترجمة للعربية "لوكلير" فقد تم اعتماد ذلك في هذا الكتاب.

(2) فرانسوا بويون، "معجم من كتب باللّغة الفرنسية من المستشرقين" *Dictionnaire Paris des Orientalistes de Langue française*, Karthala, II SMM, باريس 2012. وهو عالِـم أنثروبولوجيا، مختصّ في العالَم العربي مدير الدراسات في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعيّة حيث أدار مركز التاريخ الاجتماعي في الإسلام المتوسّطيّ.

الاستعمارية، هدفًا للتعريض به تعريضًا لا يقبل النّقض. ودون تجاهل هذا الحكم ولا الرّغبة في نقضه يسعى هذا المعجم إلى أن يُبيّن أنّ جمهور الفاعلين والعاملين في هذه المعارف، هو شديد التنّوع لا ينحصر في تبسيطات استنقاصية؛ فتشكيلة الحوافز موجودة كلّها: من أقلّها نفعيّة إلى أكثرها توحّشًا في طلب النفع، كلّ هذا يعطينا نموذجًا للإنسانية في عظمتها وانحرافاتها، ومن شأنه أن يكون نسيج شيء ما من "الأَنسنة" Humanisme».

فأيّ صنف من أصناف المستشرقين كان لوسيان لوكلير؟

لنجيب عن هذا السؤال في هذا الكتيّب سنبدأ بحثنا في الفصل الأوّل بتقديم سيرته الذاتية: حياته وتكوينه العلمي والعملي وأهمّ مؤلّفاته العلميّة. ثمّ في فصل ثان نترجم له منتقيات من كتاباته تبرز منهجه وأسلوبه في البحث ونظرته إلى مساهمة الحضارة العربية الإسلامية في المسيرة الحضارية الإنسانية. أمّا الفصل الثالث فإنّنا نخصّصه لآراء من عرفه من باحثين في عصره وبعد عصره من الغربيين ومن العرب. وننهي الكتاب بعرض مصادرنا، وهي أعماله الكاملة والمواقع الإلكترونية التي تتعلّق به.

لوسيان لوكلير Lucien Leclerc[1]
(1893-1816)

أولاً ـ حياته وتكوينه العلمي:

ولد لوسيان لوكلير يوم 13 سبتمبر 1816 في فيل -سور- إلُّون Ville-sur-Illon، وهي قرية بفرنسا تقع في إقليم لي فوج Les Vosges بالمنطقة الشرقية الكبرى. اسمها مأخوذ من اسم رافد إلّونُ وهو من روافد نهر لومادون Le Madon الذي يشقّ المنطقة الشرقية الكبرى. فمعنى اسم القرية "مدينة على الرافد إلّون". عدد سكّانها قليل لا يتجاوز 993 سنة 1821، أي بعد مولد لوكلير بخمس سنوات، وحوالي 860 ساكنًا عند وفاته. أمّا اليوم فإن عدد السكان بها سنة 2017 يبلغ 558 ساكنا. هو من

(1) "اسمه الكامل نقولا لوسيان لوكلير، الابن الشرعي لنيقولا لوكلير، فلاّح ولأمّه مونيك قران كولا Monique Grancola ولد 13 سبتمبر 1816 وعمّد يوم 15 من نفس الشهر وتاريخ وفاته يوم 10 أفريل 1993، تحصّلتُ على هذه المعلومات من السيّد ماتيس Mathis، رئيس بلدية فيل-سور- إلون". هذه الترجمة مستمدة من عديد المراجع وأهمّها بول دورفو Paul Dorveaux الذي ذكر أنّه كتب سيرته باعتماد الوثائق التي تحصل عليها من ابن اخته السيد ألبير فرتال Mr. Albert Virtel ومن بلدية فيل-سور-إلون.

عائلة فلاّحين عريقة ومحترمة. بعد إنهاء تعليمه الكلاسيكي الأساسي في المدرسة الكاثوليكية التّابعة لشاتال -سور- موزال Châtel-sur-Moselle. انتقل سنة 1936 إلى نانسى Nancy ليعدّ شهادة البكالوريا في الآداب تحت إدارة الشهير أدولف فرانك Adolphe Franck الذي كان يدرّس -آنذاك- الفلسفة في المعهد الملكي بهذه المدينة. تحصّل لوسيان لوكلير على البكالوريا- آداب سنة 1837. ولمّا كان يرغب في خطّة طبيب عسكري اجتاز في السنة التالية امتحان شهادة البكالوريا في العلوم المطلوبة في التّعليم الطبّي فنالها وسجّل في كلية الطبّ بستراسبورغ Strasbourg.

بدأ لوسيان لوكلير مهنته العسكريّة في 21 أبريل 1840 بخطّة جرّاح معاون مساعد ملحق بسيّارات الإسعاف، ثمّ صار سنة 1841 في 13 يوليو جرّاحا معاونَ - مساعد. بقي في الجزائر إلى سنة 1844 وقام برحلات كثيرة تعرّف فيها على عديد المناطق أثنـاء القيام بمهمّته كطبيب. سنة 1844 عُيّن بمستشفى التعليم بمتز Metz فعاد إلى فرنسا.

ومارس الطبّ سنة 1845 بمستشفى تجويد التعليم بباريس، ثمّ سنة 1846 بمستشفى التعليم بستراسبورغ، ثمّ من جديد بباريس 1847، وأخيرًا بمستشفى ثيون فيل Thionville إلى شهر نوفمبر 1848. ناقش أطروحة الدكتوراه بكلية الطبّ بباريس يوم 5 يناير 1849 وكان موضوعها "أسباب مرض الغدّة الدرقية"،

وهو موضوع اختاره بسبب الوجود المستمرّ للمرضى بالغدة في قريته كما قال مستدركًا في الصفحة 77 من أطروحته "أمّا اليوم فإنّنا لا نجد إلاّ حوالي اثنتي عشرة حالة على عدد 1050 من السكّان". وإثر حصوله على الدكتوراه سُمّي جرّاحًا مساعداً مكلّفًا بالكتيبة السبعين للمشاة، وبعد أسبوعين ارتقى إلى منصب جرّاح مساعد رئيس من الصنف الثاني.

عند عودته إلى الجزائر في نهاية سنة 1849 في 05 نوفمبر التحق بكتيبة عسكر زواوا[1] بنفس الرتبة ويُروى أنّها كانت نقلة عقاب بسبب آرائه السياسية. إذ كان جمهوريا وصوّت ضدّ نابوليون III الذي أعاد النظام الدكتاتوري، لكنّ دورفو لم يعترف بهذه الرّواية واعتبرها مجرّد خيال معتمدا على أنّ لوسيان لوكلير كان في الجزائر قبل الاستفتاء على مقترح نابليون.

ويعلّق دورفو قائلاً: "مهما يكن من الأمر، إن كان نابليون III قد رحّل لوكلير حقيقة إلى الجزائر بسبب آرائه السياسيّة فيجب أن نكون ممنونين له، لأنّ لوكلير وجد طريقه في الجزائر وصار مستشرقًا مشهورًا". ويحيل على صاحب تلك الرّواية وهو لويس جوف Louis Jouve[2] والتي تداولها من بعده جميع رواة

(1) زواوا اسم قبيلة بربرية انتدبت منها فرنسا جنودا يُدعَوْن "عسكر زواوا".

(2) لويس جوف أستاذ وكاتب وحافظ مكتبة فرنسي (1814-1896)، اهتمّ بمنطقة لي فوج Les Vosges وبتراثها وكتب بلهجتها وأرّخ لأدبائها =

سيرة لوكلير. ارتقى في 10 أفريل سنة 1853 إلى رتبة طبيب مساعد- رئيس من الصنف الأوّل وعيّن في نفس السنة في 22 أوت بالكتيبة الرّابعة والخمسين للمشاة وعاد إلى فرنسا بتلك الرّتبة للعناية بحامية إكس-أن-بروفنس Aix-en-Provence. عبّر عن حنينه إلى الجزائر وسعى إلى العودة إليها برغبة منه فألحق سنة 1854 بمستشفيات إقليم وهران.

في 28 ماي سنة 1859 صار طبيبا رئيسًا من الصنف الثاني وعيّن بكتيبة المشاة الخامسة والثمانين فعاد ثانية إلى فرنسا. ثمّ في 30 ديسمبر 1860 عيّن طبيبا بكتيبة الصبائحية الثالثة بحامية قسنطينة فعاد يوم 1 فيفري 1861 إلى الجزائر التي أحبّها والتي كان عليه مغادرتها نهائيا يوم 3 جوان 1864.

ارتقى سنة 1864 إلى رتبة طبيب رئيس من الصنف الأوّل فعُيّن بالكتيبة الثالثة والخمسين للمشاة ومنها الكتيبة الثالثة والأربعين (26 مارس 1866) فالحادية والثمانين (13 أوت 1869) التي كانت حامية- باريس.

اندلعت الحرب بين ألمانيا وفرنسا فاضطرّ إلى الالتحاق بعمله

= ومفكّريها ومنهم لوسيان لوكلير. نشر "جوف" عنه بعد وفاته في سجل الوفيات للتطور العسكري (15 أفريل 1893)، في "المحايد" وفي "الجمهوري الفوجي" (16 أفريل 1893). Nécrologies du progrés militaire (15 Avril 1893), de l'Impartial, du républicain des Vosges (16 Avril 1893).

بـ"متز"[1]. والحال أنّه كان يسعى إلى الحصول على التقاعد للتفرّغ لأبحاثه في الطب العربي. ذهب إلى "متز" مع كتيبة خطّ الدّفاع رقم 81 حيث عبّر عن ألمه لمرارة الهزيمة الحربية، وبعد استسلام

(1) كان الالتحاق فوريا فلم يتمكّن من تأمين أعماله ووثائقه وكان يسكن في أركوي، طريق أرليان 8 مكرّر قريبًا من الجبل الأحمر Arcueil, route d'Orléans, 8 bis, tout près du fort de Montrouge، كتب على عجل رسالة إلى أخيه في 21 جويلية 1870: "**أرسلت إليك بألفي فرنك من مكتب البريد بمحطة الشرق. احتفظ بها جيّدا ولا تلمسها. فهي ما أحتاج إليه للطبع. كان يمكنني القيام بذلك لو كان عندي مال آخر كما كنت أتمنّى لكنّك عرقلت أعمالي [. . .] لو كان لي من الوقت ثماني وأربعين ساعة لذهبت بمخطوطي ومالي إلى أحد الأصدقاء ليتولىّ عنّي طبعه، هكذا ينتظم كلّ شيء وكنتُ أمضي مسرورًا، لأنّ الله وحده هو من يعلم متى أعود وهل سأعود**"ورسالة ثانية إلى صديقه الدكتور جودا Judas وهو طبيب عسكري متقاعد ومستشرق متميّز: "**بما أنّه لا بُدّ من توقّع كلّ شيء في حرب كهذه، فكرت في أنّكم يمكن أن تتفضّلوا بالاحتفاظ بترجمة ابن البيطار وبما كتبته في تاريخ الطبّ العربي إلى حدود القرن العاشر الذي تنقصه ثلاث أو أربع سير. لو قدّر لي الموت هنا لا أحبّ أن يبقى ما كتبته ضائعا عند أهلي**" وصف له الأمكنة وأعلم مالكَ البيت بقدوم جودا لأخذ المخطوطات. فأجابه الدكتور جودا في 3 أوت 1870:"**صديقي العزيز، عندي في البيت مخطوطاتك، وسأذهب ذات يوم لأخذ مخطوط ابن البيطار فهو ثقيل جدًّا**". عن بول درفو ص220. ولعلّ توقعاته كانت في محلّها بما أن بيته تعرض للنهب من طرف اللّصوص ولو لا جيرانه الذي عادوا بعد الهروب للتفقد لما أمكن جمع ما تبقي من مكتبته وحفظه في 11 صندوقًا إلى حين عودته.

تلك المدينة (27 أكتوبر 1870) تحصّل باعتماد اتفاقية جونيف Genève على رخصة مرور تسمح له بمغادرة "متز" إلى حيث يشاء (يذكر دورفو تفاصيل الرخصة). عاد لوكلير إلى مسقط رأسه فيل-سور-إلون حيث لبث أيّامًا قليلة مع عائلته ثمّ سافر إلى لنجر Langres فوصل إليها في 29 نوفمبر ومنها سافر إلى أتون Autun ومنها امتطى القطار إلى ليموج Limoges حيث قاعدة كتيبته. يوم 12 مارس 1871 تحصّل على عطلة بنصف المرتّب مُدّتُها شهران سافر أثناءها إلى مدريد Madrid حيث مكتبة الإسكوريال ليطّلع على عديـــد المخطوطات العربية. حين عاد إلى كتيبته المرابطة في تول Tulle بعد العطلة، أُحِيل على التقاعد الذي طالما سعى إليه وأُعلم بقرار هذا نصه: "باعتماد القرار المؤرخ في 24 أكتوبر سنة 1871 أحيل على التقاعد السيد لوكلير طبيب رئيس من الصنف الأول بكتيبة الدّفاع رقم 81. وذلك إثر إحدى وثلاثين سنة من الخدمات الجيّدة المخلصة، قضى ضمنها إحدى وعشرين سنة بالأرياف. لن يغادر السيد الدكتور لوكلير الكتيبة قبل أن نُعبّر له عن أسفنا الصادق لمغادرته لنا فإنّ طبعه الكريم وإخلاصه العميق لمرضاه جلبا إليه دائما احترام الجميع ومحبّتهم. ويشطب اسم السيد لوكلير في اليوم العاشر من هذا الشهر". "تول" في 9 نوفمبر 1871 العقيد بكتيبة الدّفاع الحادية والثمانين (81) الإمضاء دوبايو De Paillot"[1].

(1) لم يغفل دورفو عن ذكر مبلغ مرتب التقاعد وهو 2590 فرنكا.

غادر لوكلير المؤسّسة العسكرية مكرّما بوسام الشرف برتبة ضابط، أسند إليه في ثلاثين سبتمبر 1870 أثناء حصار "متز" وكان منذ 27 ديسمبر 1861 حاملا وسام الشرف برتبة فارس. هكذا عاد إلى حياته العاديّة مقتسما حياته بين باريس[1] حيث بدأ في نشر أعماله وبين مسقط رأسه "فيل-سور-إلون" لقضاء عُطَلِه مع عائلته. مكث لوكلير بالجزائر أكثر قليلا من ستّ عشرة سنة ونصف السّنة، فجذب إليه أنظار مرضاه ورضاهم عنه لا الجنود فحسب بل الجزائريين أيضًا، فأحبّهم وأحبّوه وحفظ لغتهم المحلية كما أتقن العربية الفصحى[2]، اكتسب ثقتهم حتّى صار

(1) كان يسكن غرفة بنزل موجود في ساحة البنتيون Panthéon (اليوم نزل البنيون).

(2) يقول بالصّفحة 7 من كتابه "واحات إقليم وهران" «ما إن سمعوني أتكلم العربية وعن الإسلام هنا أو في أيّ مكان آخر حتّى سألوني لماذا أعتني بهما وهل أريد أن أعتنق الإسلام. سمعت بعضهم يقول "هَذَاكْ يعرف ربّي"(ذلك رجل يعرف الله) وآخرون يقولون "هَذَاك عربي قاع" (ذلك رجل عربيّ قحّ).
علموا سريعا أنّي طبيب وطيلة اليومين، مدّة إقامتنا عندهم، فحصت بعض المرضى. كان بعضهم يسموننني في منطقة العربوات مرّة "مداوي" وهو اسم مستعمل أيضًا في منطقة لبيَض" وغيرهم يسمّونني إمّا "طبيب" أو "حَكيم"». ينقل حواره مع أحد الأهالي بحذافيره في هذه المسألة وقد بدأ محاوره بقوله: "تغلّبتم علينا بسهولة ولكن لو كنّا أقلّ انقسامًا لوجدتم الكثير من العناء للبقاء في بلادنا".
- حقًّا، لستم متحدين، كلّ واحد منكم يمضى في سبيله وحده ويمكننا التغلّب عليكم الواحد بعد الآخر، ولكن ألا يُسعدكم أن جاءت الهيمنة الفرنسية لتضع حدّا لفوضاكم؟ لو حدث وغادرنا البلاد، =

يناقشهم في شتّى المواضيع كالدّين والزّواج بل حتّى في السياسة ولا سيّما الاحتلال وأسبابه.

جمع عديد الوثائق والمخطوطات أثناء إقامته بالجزائر ومن ضمن تلك الوثائق الأثمن في مكتبته مخطوط الجامع لابن البيطار المتكوّن من 4 أجزاء أهداه إيّاه مثقّف أو حافظ مكتبة من قسنطينة يدعى سي حمّودة[1]. كلّ كتبه صدرت على نفقته الخاصّة إلّا الجامع فقد صدر على نفقة المطبعة الوطنية الفرنسيّة.

لُقّب لوسيان لوكلير "العربي" لشغفه بالجزائر بأرضها ونباتها وعبادها وتاريخها بلغتها لهجةً وفصحى. توفّي أعزب يوم 10 أفريل 1893 ودفن في مسقط رأسه وأبّنه الدّكتور شامبي Dr. Champy طبيب بـأوزمان Uzemain بـ"لي فوج" وكانت خاتمة كلامه

= لعدتم فورًا إلى حمل السلاح بعضكم ضد بعض إلى أنْ يَقْضِي بَعْضُكم على بعضٍ.

– أنت على حقّ، لو ذهب الفرنسيون، فستثور بعضُنا ضدّ بعضٍ في كلّ الأماكن. نحن من سلالة أبي بكر نحتقر بقية العرب ومن المستحيل أن نخضع لأحد منهم.

– الأمر عندنا ليس كما هو عندكم. باستثناء العائلة الحاكمة فإنّ المناصب والوظائف لا تبقى دائما عند نفس العائلات إذ قيمة الشخص عندنا لا ترتبط بكونه ابن أبيه فقط ولكن بكونه كفئًا هذا هو السّبب الذي جعل الفرنسيين الذين يحكمونكم يسيطرون بسهولة على بلادكم فيُجازون على خدماتهم بوظائف أرقى.

(1) ذكرت سيمون الذاكري أنّه اشتراه من مكتبة في قسنطينة وهذا عكس ما قاله لوكلير.

كالآتي: "حين التحق بالحياة العامّة سنة 1871 كان لهذا الرجل الشهم المتحلّي برباطة الجأش من الكفاءات ما يمكّنه من إسداء عديد الخدمات سواء في مجالس محافظاتنا الجهوية أو في غيرها[1]، لكنّه لم يكن يبحث لا عن التشريفات ولا عن الركض خلف المناصب، فكلّ جهده كان منصبّا على العلم وعلى إسعاد عائلته. وعائلته تعلم أكثر منّا جميعا كم كان مترفّعا عن الماديات وكم كانت أخلاقياته في مستوى ما يطلب من العالم الحقّ ومن الطبيب ومن المواطن"[2].

التشريفات : نال وسام الشرف مرتين كما ذكرنا آنفًا ونشط في حياته في شتّى الجمعيّات كمراسل وعضو وكاتب عامّ[3].

التكوين العملي:

تكوينه العملي المدعّم لمهنته الطبيّة والاختصاصات المتعلّقة بها بدا واضحا من خلال تجربته في الجزائر التي وصفها في مذكراته المدوّنة في كتابيه: "واحات إقليم وهران" و"مهمة في

(1) لعلّه كان طبيبًا في إحدى الفرق الرّياضية، إذ نجد اسمه مذكورا في نشرية "ألعاب القُوى" للاتحاد الفرنسي لألعاب القوى الذي أسُّس سنة 1887، باعتباره عضوا تابعًا لرابطة شنباني Champagne.

(2) كان يمكنه أن يكوّن ثروة كبيرة في الجزائر كما فعل غيره لكنّه كان رجل علم متشبّعًا بأخلاقيات العالم الطبيب.

(3) انظر شهادة بول درفو في الفصل الثاني.

إقليم القبائل" بالإضافة إلى وثائق أخرى. فمن المعلوم أنّ لوسيان لوكلير متحصّل على البكالوريا آداب وعلى بكالوريا ثانية علمية. ونعلم أنّ دراسة الآداب في ذلك العصر تشترط على المتخرّج لغتين قديمتين بالإضافة إلى الفرنسية وهما اللّاتينية واليونانية ولا ندرى هل كان تدريس اللّغة العربية إجباريا أو اختياريّا، لكن ما نعلمه أنّ اختياره للعمل في الجزائر سهّلته له معرفته باللّغة العربية إذ يقول: "بعد حملة 1857 شرّفني المرشال رندُون Randon بتعييني للخدمة الصحّية للسكّان الأصليين بقلعة نابوليون[1] وكان ذلك أملا في أن تتوصّل وزارتنا إلى التأثير الإيجابي على سكّان تمّ غزوهم حديثا ولم يرضخوا بعدُ للأمر الواقع" ويضيف بالصفحة 229 من كتاب مهمّة في إقليم القبائل "بالإضافة إلى ذلك فإنّ معرفتي باللّغة العربية وثقافتها كانت وسيلة تأثير أخرى، على المثقّفين منهم كما على الأميّين".

ووجدنا ضمن أوراقه المحفوظة في المكتبة الوطنية الفرنسية ثلاث وثائق متّصلة بتعلّم العربية نذكر منها كرّاسًا يتكوّن من حوالي مائتي صفحة يحتوى على قواعد اللّغة العربية مكتوبة بخطّ يده متبوعة بكلام مطوّل عن الحمام وتربيته واستعماله للمراسلة عند القدامى عبر العصور، ثمّ يلي ذلك عودة إلى دروس اللّغة

(1) في الأصل اسمها قلعة أبو العيون. لكنّ الفرنسيين غيروا كلّ الأسماء الجزائرية بأسماء فرنسية منذ بدء احتلالهم للجزائر.

العربية ثمّ يليه معجم للكلمات التي يستعملها الطبيب الفرنسي لمعالجة الجزائري وفيه كلمات متداولة عند الجزائريين (معادن، حيوان، نبات) يلي ذلك حوارات مع المرضى فيها عرض للحالات المرضية الممكنة كلّ ذلك يكتبه لوكلير بالفرنسيّة إزاء العربية ليسهل عليه حفظه.

ولم يكتف لوكلير بتعلم الفصحى[1] بل نجد ضمن الوثائق كرّاسا آخر تعلّم فيه اللّهجة الجزائرية وهو وثيقة هامّة جدًّا يمكن أن تُدرس بواسطتها اللّهجة الجزائرية الأصيلة في القرن التاسع عشر قبل أن تتحوّل بتأثير الفرنسية إلى خليط من اللّغتين، دراسة لسانية. في هذه الوثيقة نلاحظ لا حِفظَ اللّهجة الجزائرية فحسب، وهو كالعادة يكتب إزاءها الكلمة بالفرنسيّة حتى يسهل عليه الحفظ مثلا في أوّل درس:

صبـــاح	الـــــ	ـــخـــيـــر	يـــا	ســيـدي
sbahh	el	khir	ia	Sidi

بل نلاحظ من خلال كلّ نصّ، غوصًا في الحياة الاجتماعية الجزائرية (الحياة اليومية، المرض والصحّة، النظافة، الطقس وأحواله، الدعوات، العقود، الحمّام، الملابس، المقهى، الصيد،

(1) نعلم أن من المستشرقين من كانوا يدرّسون العربية في المعاهد العليا لكن لا ندرى هل درس لوكلير عندهم أو في مدرسته الثانوية أو تكوينه عصاميّ.

السباحة، التجوّل، إلخ...) فهي بمثابة عملية تدرّب على الاندماج في المجتمع بالتعرّف على جميع خصائصه.

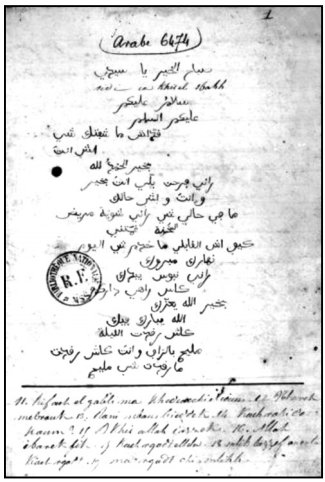

أمّا اللّغة البربرية فلا نعتقد أن لوكلير أتقنها كما أتقن العربية واللّهجة الجزائرية، لأنّ ملاحظاته فيها إشارة إلى المترجمين الّذين كان يستعين بهم وكانوا في رأيه لا يتقنون الترجمة. وكان لوكلير يعرف الألمانية ممّا مكّنه من قراءة الترجمة الألمانية لابن البيطار.

هذا هو إذن تكوينه اللّغوي الثّري: فرنسية وعربية فُصْحى ولهجة جزائرية وألمانية ولاتينية ويونانية. أمّا كفاءاته الأخرى فنتبينها في تجاربه العملية التي دوّنها في كتابيه المتعلّقين بإقليمي وهران والقبائل. فيهما نكتشف شساعة ثقافة لوكلير وقدرته على الوصف والتعبير بأسلوب شيّق وسهل بل يبلغ أحيانًا سمة الشعرية

فتتجلّى براعته لا كطبيب فحسب بل كالمبدع الطّلَعَة المدفوع في وصفه الدقيق، بعيون صقر، إلى استكشاف الأمكنة والناس. يصف وصفَ الخبير طبيعة الأرض وتضاريسها وجبالها وسهولها وصخورها ومعادنها الثمين منها والعادي، ونباتها وحيوانتها الطائر منها والماشي ومياهها وآبارها وأوديتها التي تصب في الصحراء أو في البحر. فإذا به صاحب خبرة وعلم بأنواع المعادن والنبات والأتربة والحيوان والمياه فتتجلّى كفاءته العلمية في الأدوية المفردة والعلاج البديل، وكذلك معرفته الدقيقة بجغرافية الجزائر التي جابها شرقا وغربا وتبيّن ما تحتوى عليه من ثروات. بل نجد تتبّعا لمناخها بمقاييس علمية وإحصائيات للأمطار واهتمام بالتقلّبات الجوية ودرجة الحرارة في جداول توثّق كلّ ذلك توثيقا علميًّا.

وتتجلّى معرفته بالجغرافية البشرية أيضا في عنايته الشديدة بالوصف الدقيق للمعمار في القرى والمدن بحماماتها وطواحينها ومعاصر زيتونها وصنائعيها ونسائها العاملات في نسج الملابس والزّاربي وغيرها، ولم تفته الإشارة إلى أضرحة الأولياء وتحوّل عقيدة النّاس الصّحيحة إلى ما أفضى بهم إلى التواكل والكسل والقدرية العمياء والشعوذة فضلا عن الجهل والفقر المتفشيّ المتجلّى في جميع مظاهر حياتهم، كما لم تفته ملاحظة انقسام الأهالي إلى عرقين مختلفين: بربر وعرب حيث يكثر الأشراف المنتمين إلى عائلات الفاتحين العرب كعائلة حمزة التي يعود نسبها إلى أبي بكر الصديق. وقد عمد لوكلير في يومياته إلى تعداد مفصّل

للقبائل العربية والبربرية. وأشار إلى تاريخها واختلافاتها وحروبها بعضها مع بعض وهو تفرّق سهّل دخول المستعمر[1] واهتمّ بالتاريخ القريب والبعيد للجزائر وكتب فيه مقالات في المجلات العلمية لذلك العصر. أثناء ذلك جميعا نجد الطبيب العالم بمكوّنات المادّة الطبية يفتح أقواسا مطوّلة للحديث عن التين والزيتون مثلا فيذكر بما قاله أرسطو Aristote وبلين Pline[2] وابن البيطار[3] وداوود الأنطاكـــي[4] مع الإشارة إلى المعاصر التقليدية وصناعة الصّابون وصنع الأواني الخشبية فضلا عن الفخارية.

ولمّا كان لوسيان لوكلير طبيبا عسكريّا فإنّ التزامه الوظيفيّ فرض عليه التّحفظ والكتمان والطاعة لا الإدانة لقرارات جيشه،

---

(1) أشارت الباحثة الجزائرية وافية النفطي، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، الجزائر إشارة وافية إلى الأسباب التي أدّت إلى التجهيل والتفقير في مقالتها "مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني" آفاق فكرية المجلّد 05، العدد 10، ماي 2020 ص.ص 20-53.

(2) بلين، ولد بإيطاليا (23م-79م) وهو شاعر وفيلسوف وكاتب مؤرخ وعالم طبيعة.

(3) ابن البيطار، والملقَّب بالنباتي والعشَّاب (1197- 1248م) عالم نَبَاتي وصَيْدَلي، يعتبر من أعظم العلماء الذين ظهروا في القرون الوسطى، وعالم عصره في عُلوم النبات والعَقَاقِير، والصيدلاني الأول في تراكيب الدَّواء ورائد العلاج الكيميائي. ولد في الأندلس بمدينة مالقة وتوفي بدمشق.

(4) الأنطاكي داوود ولد في أنطاكيا، أقام بالقاهرة وتوفي بمكة 1599م، طبيب ضرير، أشهر كتبه "تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب".

لكن نشعر من خلال ملاحظاته بعدم الرضى في داخله ولعلّ ذلك هو ما جعله يطالب على مدى سنوات بالتقاعد (ورأيناه حين استعاد حريته بالتقاعد صرّح برأيه في الاحتلال). من إشاراته الخفية إلى موقفه وهو يتحدّث عن عدد السّكان قوله ص50 من كتابه مهمّة بإقليم القبائل: "من الضّروري أنّ الحروب مع فرنسا كانت حاجزًا أمام ارتفاع عدد السكّان لما أحدثته من فراغات، بتدمير موارد الرّزق المحليّة، وبالعقبات التي أحدثتها أمام التجارة الخارجية إلخ".

ويعلّل تضاؤل عدد السكان بالهجرة هربا من الاستعمار: "في القبائل كما في مناطق أخرى من ممتلكاتنا الإفريقية دفع التعصّب إلى بعض الهجرات إلى الشرق" ص50 فهل قوله "التعصّب" و"مُمتلكاتنا الإفريقية" تقيّة منه أو تحفّظ؟ فقد رأيناه يقول في مواطن أخرى عن البربر: "حربهم من أجل الحريّة" و"حرب العرب من أجل الدّين" وفي ذلك اعتراف بحقهم في الدّفاع عن أنفسهم ويقول لوكلير ص36 "في حروب بإقليم القبائل عندما اضطُرّ إلى وسائل الهدم والتدمير لا يقع الضّرر بشجر الزيتون إلّا إذا استُنفذت الحيلُ عندئذ لا يتأخر القبائليون عن الاستسلام" لشدّة تعلّقهم بشجرة الزّيتون رمز الاستقرار والسّلام. بل رأيناه يصف عمليات التدمير لمسجدين بشيء من الأسف وهما من المساجد الجميلة المزخرفة يقول ص91 "أجمل ما رأينا من الأبنية المزينة بالجبس... كانت تزينهما أجمل النقوش العربيّة،

هدما بقرار سياسي واقتضى هدمهما استعمال المدفع"[1]، بل يعود ليُكرّر من جديد في مكان آخر من الكتاب عن المسجد المهدّم "هو أحسن ما رأينا". ونجده يكرّر ما فُرض قوله طبقا للطاعة العسكرية وواجب التحفظ عمّا أحدثه الجيش الفرنسي من خراب بأربعة مناطق بقوله عن المنطقة الأولى "كانت مسألة أمن" وعن المنطقة الثانية "الخضوع للأحوال المناخية" وسكت عن المنطقتين الأخريين فلعلّه لم يجد لهما تبريرًا مقنعًا.

أمّا الجانب الثقافي فقد لاحظ لوكلير أنّ البربر يتكلّمون العربية أكثر من البربرية التي يتخاطبون بها أيضًا فيما بينهم من ذلك أنّهم يستعملون كلمة "حدّاد" العربية والحال أنّ لهم الاسم في البربرية ولا يستعملونه. وبالرّغم من محاولته ربط الصّلة بين اللّغات والاقتراض وأصول الشعوب والقرابة بين المصرية القديمة والفينيقية إلّا أنّه لم يتفّطن إلى أنّ الفينيقة كانت بشمال إفريقيا قبل اللّاتينية وهي أخت العربية التي جاءت مع الإسلام من حيث

(1) العرب مسلمون جزائريون والبربر مسلمون جزائريون أيضًا ولذلك ركّز الاستعمار الفرنسي على تنصيرهم بواسطة بعثات دينية يقودها الرّهبان وتعليمهم اللّغة الفرنسية وتكثيف العناية بهم لفصلهم عن مواطنيهم العرب بتنمية مصالحهم مع المحتل اعتمادا على مقُولة "فرّق تسد" فمفهوم "المواطنة" لم يكن معروفا آنذاك. بالإضافة إلى هدم كل تراث مادي وغير مادي لهم، فعمل علماء لغة مستشرقون على الدعوة إلى اعتماد اللّهجة بدل العربية الفصحى بدعوى أنّها صارت لغة ميّتة كاللّاتينية، أشهرهم وليام مارسي William Marçais وهدموا المساجد وبنوا الكنائس ولم يهدموا الآثار الرومانية بل احتفوا بها وحفظوها.

انتماؤهما إلى نفس الأمّ ولهما نفس المعجم ونفس البنية الثلاثية، ثمّ إنّهما مع البربرية من نفس العائلة اللّغويّة الإفريقية. ثمّ حدّثنا عمّا كان يقوم به الجيش من تجميع كلّ ما يملكه الأهالي من كتب هي بقايا الحضارة العربية الاسلامية (قرآن - مخطوطات- كتب في الطبّ إلخ)[1].

ووجدنا ضمن ممتلكاته مخطوط الهارُونية[2] للمسيح بن حكم (ولا أظنّه الأصلي لما داخله من اعتماد للرّقى وبعض الوصفات الخارجة عن الطبّ البديل) وله مخطوط عبد الرزاق الجزائري "كشف الرّموز" أيضًا وكان أوّل ترجماته فتح له الباب للعودة إلى التراث الطّبي العربي فترجم جزءاً من كتاب ابن سينا وداوود الأنطاكي وابن البيطار وحين تعمّقت معرفته للطب العربي كتب كتابه "تاريخ الطبّ العربي".

وذكر لوكلير أنّ تلك المخطوطات العربية أفادته تطبيقيّا أيّما إفادة لمعرفة كيفية التطبيب عند الجزائريين والمادّة الطبية التي يستعملونها لأمراضهم وقد رآها موجودة تُباع في دكاكين[3] الأعشاب الطبية (بني

(1) ذكرت سيمون الذاكرى أنّ لويس السادس عشر شجّع على جمع المخطوطات القديمة وعلى ترجمتها وبدأ عمل المستشرقين منذ القرن السّابع عشر وتواصل في القرنين الثامن عشر والتّاسع عشر وتدعّمت أعمالهم بإنشاء جمعية الدّراسات الآسياوية ومجلتها التي اجتمع حولها خيرة العلماء الباحثين (انظر قائمة المراجع).

(2) بالإضافة إلى مخطوطات أخرى ذكرناها في الفصل الرّابع.

(3) يذكر لوكلير أنّ الفرنسيين حرّموا عليهم بيع بعض العقاقير كالجوز المقيء والزّرنيخ...

مزاب على وجه الدقّة) وساعدته على تعليم المرضى وتوجيهم للكفّ عن تصديق خزعبلات المشعوذين الجهلة. هكذا تمكّن من خدمة صحيّة للسكان الأصليين وهو على دراية بتقاليدهم في حياته العملية معهم. وأكّد لوكلير على احترامه لهم حين يتحرّجون من أمراضهم أو يرفضون التعرّي أمام الطبيب بل بعضهم يطلبون أدوية لنسائهم اللّاتي لا يحضرن لمقابلة الطبيب. لاحظ استسلامهم إلى القدر إذ يقولون عمّا أصابهم من أمراض "من عند ربـّي" ولاحظ أيضا احترامهم له لاسيّما وقد فهم تخوّفهم وشكوكهم حتّى إنّه كان لا يلقّح أبناءهم إلّا مع أبناء الفرنسيين لتطمئن قلوبهم، فيشكرون ويقولون له: "أنت أعطيت الدّواء والله هو الذى يشفى..." ويعترفون مع ذلك بفضل الطبيب إذ يدعون له: "الله يطيل عمرك! الله يكثّر خيرك! الله يرفع درجتك". وكان لوكلير يعرف أسماء كلّ مرضاه نساء ورجالا ويجتهد في معرفة أسباب ما يصيبهم من أمراض ليتمكّن من علاجهم بل له إحصائيات علمية في ذلك ولكلّ الأمراض وفق السّن والمناخ والفصل والجنس إلخ.

ومن خلال تجربته في وهران والقبائل استنتج بعض الأحكام عن أهلهما بعد المقارنة بين البربر والعرب فأشار إلى اختلاط دم البربر بالرّومان ونسي الإشارة إلى اختلاط دمهم بالعرب، رأى في قبول العرب بالخدمة معهم نوعا من خيانة أهلهم[1] ورأى

(1) لم ينتبه إلى أنّه لمّا كانت السلطة السياسية بأيديهم- أي العرب- فإنّ قبولهم التعاون مع الفرنسيين هو رغبة منهم في الإبقاء على شيء من السلطة على أمل استردادها من ذلك مثلا أنّ حمزة الذي حارب الفرنسيين مع الأمير عبد القادر حين خسر الحرب وقُتِل رِجاله قبل وظيفة خليفة.

البربر أقلّ تعصّبا للدّين من العرب: كما رأى المرأة البربرية أكثر تحرّرا وجرأة وأنفة من المرأة العربية. هذه الأحكام في مجملها سطحية أغراضها معروفة نشرها المستعمر لتبرير احتلاله وكانت شائعة بين الفرنسيين. لكنّ لوكلير أبدى في الغالب تعاطفه مع أهل البلاد المحتلّة ويبدو ذلك في قوله ص.ص123-124 إنّه كتب ما كتب "لأنّه قد يَعتمدُ مَا فِيه غيري ممّن سيدعون لخدمه سكّان هامّين وطيّبين يستحقّون ما قمنا به من تضحيات من أجلهم وما فتئوا حاضرين في ذاكراتنا". ووجدنا الباحثة جونوفياف ڤسدون Geneviève Guesdon تشير إلى ما كتبه في مذكّراته: "المحتفظ بها منقوصة تشهد على ثورته ضدّ عنف الاستعمار الفرنسي في السّنوات الأولى سواء العنف اليومي المسلطّ على أهالي البلاد والذي شهده منذ حلوله بالجزائر أو عنف الحرب عند احتلال الجيش الفرنسي لمليانة Miliana[1]". مهما يكن من أمر فتجربته في الجزائر كانت تجربة غنيّة ثقافيا واجتماعيًّا وتاريخيًّا وعلميًّا. وبيّنت كفاءات لوكلير المتعدّدة في شتّى العلوم التي لها صلة بالطبّ: كعلم الطبيعة بفروعه: علم النبات، علم الحيوان وعلم المعادن، علم الجغرافيا: علم المياه وعلم المناخ. وعلم الصيدلة والطب البديل. وهو في جميع ذلك شديد التثبت واسع الثقافة لا يكتفي بما يقرأه في الكتب بل يقارن بين قراءاته وينزل إلى الميدان ليلاحظ عن كثب ما قرأه بجولاته في جميع البقاع الجزائرية.

(1) تقع مدينة مليانة الجزائرية في ولاية عين الدفلى في أحضان جبل زكار.

ومن المصادر الهامّة التي تعطينا صورة واضحة عن الخلفية المعرفية لِلوكلير وثائقه المحفوظة في المكتبة الوطنية الفرنسية، بالرغم ممّا فيها من نقص بسبب ضياع الكثير منها عند نهب منزله فإنّها تعرّفنا بموسوعية ثقافته. إذ نجده لا يقرأ في الطبّ فحسب وفي تاريخه منذ أقدم العصور إلى عصر الطبّ العربي عامّة، والطبّ المغاربي خاصّة بل يوسّع قراءته ويهتمّ بالشعر والأدب (كليلة ودمنة) والفلسفة (إخوان الصفاء) والطبيعة حيوان/نبات، وعلم الإنسان جسد/نفس/علم الأرواح/ مسافة العمر واللّغة الأصوات الحروف والأرقام وعلم الفلك والجغرافيا (ابن حوقل وأبو الفداء) وكيفية حدوث صناعة الورق والتاريخ السياسي للرسول والصحابة والأمراء والخلفاء العرب وملوك الفرس وأصل الحضارة الإنسانية.

بل نجده يهتمّ بالعبادات وأسماء الله الحسنى والفقه والنحو والمذاهب الأربعة والتصوّف (الغزالي، ابن عربي، القرطبي، القريشي) نجد في تلك الوثائق أيضًا بعض التعاويذ السحرية لمعالجة الأمراض والوسواس وقصّة السبعة رُقود (أهل الكهف) وقواعد فقهية وحرز المرجان. نجد أيضًا وثائق في الفلاحة الرومية والفلاحة النبطية بالإضافة إلى مقطوعات متبقية من القرآن ومن كتب دينية كمقتطفات من "إحياء علوم الدّين للغزالي، وورقة من مدوّنة سحنون وجزء من كتاب الأنواء وجزء يسير من كتاب البكرى. هذا مع قطع في الكيمياء والرّياضيات إلخ.

أمّا الأسماء المتداولة في تلك الوثائق فهي لا تحصى لأنّها لا تتعلق بالطبّ فحسب وقد ظهر منها في كتابه "تاريخ الطبّ العربي" جزء هامّ. إن تلك الوثائق فضلا عمّا ذكرناه من ثقافته الغربية تدلّ على شغف بالمعرفة لا نظير له إلّا عند العلماء الصادقين الذين ينطبق عليهم المثل العربي «**اثنان لا يشبعان : طالب مال وطالب علم**».

أهمّ الأماكن التي لها ارتباط وثيق بحياة لوسيان لوكلير من حيث التكوين العلمي والعملي: (1) المولـــد والتعليم الابتدائي (2) التعليم الثانوي (3) التعليم العالي والعمل (4) الميناء ومنه تسافر السّفن العسكرية (5) مكان الشغل في المستشفى ومكان مواجهة الجيش الألماني (6) نقطة للسفر إلى مدريد (7) مكتبة الإسكوريال (8) قاعدة كتيبته حيث تحصّل على التّقاعد (9) مكان إقامته الثاني قبل التقاعد وبعده.

ثانيًا ـ أهمّ أعمال لوسيان لوكلير :

1. مؤلّفه في "تاريخ الطبّ العربي"[1]

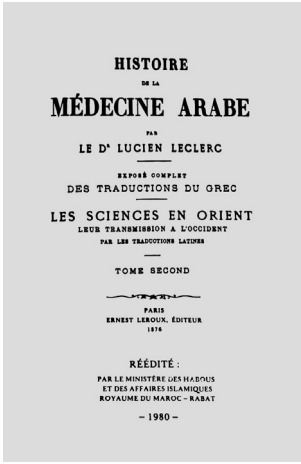
HISTOIRE
DE LA
MÉDECINE ARABE
PAR
LE Dr LUCIEN LECLERC
EXPOSÉ COMPLET
DES TRADUCTIONS DU GREC
LES SCIENCES EN ORIENT
LEUR TRANSMISSION A L'OCCIDENT
PAR LES TRADUCTIONS LATINES
TOME SECOND
PARIS
ERNEST LEROUX, ÉDITEUR
1876
RÉÉDITÉ :
PAR LE MINISTÈRE DES HABOUS
ET DES AFFAIRES ISLAMIQUES
ROYAUME DU MAROC – RABAT
– 1980 –

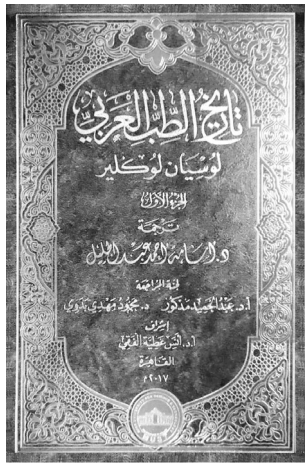

عمد لوسيان لوكلير في تأريخه للطب العربي إلى مسح شامل تاريخي وجغرافي لتاريخ العلوم عند العرب مركزا على الطبّ دون إهمال العلوم الأخرى المتصلة به كالطبيعة والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات والفلسفة والجغرافيا أيضًا. بدأ التاريخ بمرحلة ما قبل الإسلام وانتهى به إلى القرن الثامن عشر حيث اعتبر أنّ آخر من عرفهم من الأطباء العرب الجديرين بهذا الاسم

(1) نشر إرنست لورو، ط1، باريس 1876 (اعتمدنا هذه الطبعة) وتوجد طبعة ثانية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية الرّباط، 1980، في الفصل الثاني عرّبنا أهم المقدّمات التي تعطى فكرة واضحة عمّا في الكتاب.

هو عبد الرزّاق بن محمد بن حمادوش الجزائري[1] الذى خَصّهُ بفصل في كتابه وترجم له كتاب كشف الرّموز. في المسح الجُغرافي لتاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية انتقل بين فارس والجزيرة العربية والعراق ومصر وسوريا واليمن وشمال إفريقيا والأندلس ولم ينس الطب النبوي ولا الإشارة إلى المدوّنة التي ترجمها العرب، ولا مدرسة الإسكندرية وحريقها، وأكّد على اعتماد العرب على جالينوس وأبقراط وديسقوريدس في المقام الأوّل. وقسّم كتابه إلى مجلّدين كلّ مجلد يحتوى على أربعة كتب. **المجلّد الأول** : الكتاب الأوّل : عنوانه *"أصول الطب العربي إلى سقوط الدّولة الأموية"* انتهى به التاريخ إلى نهاية العهد الأموي.

الكتاب الثّاني : عنوانه *"إعداد العرب للعلوم بالترجمات القرن التاسع أو قرن الترجمات"* يتكون من 247 صفحة يبدأ من ص 87 وينتهي ص 327.

في الكتاب الثاني قدّم الأطباء الأوائل في الدّولة العباسية: آل بختيشوع ومعهم حوالي (12) طبيبا ثمّ قدّم (10) أسماء لكبار المترجمين، ثمّ (5) مترجمين من درجة ثانية وقسّم المترجمين على مراحل فكانوا (9) في المرحلة الأولى و(59) في المرحلة الثانية و(19) في المرحلة الثالثة. عرض إثر ذلك المؤلّفين المترجَمين فكانوا في الفلسفة (26) اسما وفي الطبّ (12) اسما مشهورا و(24) أقلّ شهرة،

(1) وهذه إضافة له لم يقم بها غيره من المؤرّخين.

في الرياضيات (9) أسماء. المترجمون من الفارسية والكلدانية والهندية (10) أطباء هنود، من الأطباء الأواخر ذكر (21) متطبّبا ومن علماء الكيمياء (6) ومن علماء الطبيعة إثنان.

الكتاب الثالث : خصّصه للقرن العاشر : عرّف بعلماء في الطب وغيرهم: من فارس (8) أشهرهم الرّازي والفارابي ثمّ العراق (36) طبيبا، مصر (10) أطباء، المغرب (4) أطباء، الأندلس (33) طبيبا.

الكتاب الرّابع : خصّصه للقرن الحادي عشر : (9) أطباء بفارس، العراق (14)، سوريا (5)، مصر (10)، تونس (1)، الأندلس (24) (فيهم أطباء وعلماء في مجالات أخرى). يُنهي لوكلير الكتاب الرّابع بفصل عنوانه "تاريخ المؤسّسات الطبيّة عند العرب" خصّصه للحديث عن المستشفيات، والمدارس والمكتبات والمراقبة والتفتيش العامّ للشرطة، والمراقبة الطبية الخاصّة والوظائف والأسماء والتقديرات التي يتمتع بها الأطباء. بدأ بمستشفى جندبسابور وغيره من المستشفيات بفارس (3 مستشفيات) ميافرقين (مستشفى)، سوريا (عديد المستشفيات أشهرها مستشفى نور الدّين) بالإضافة إلى بناء المدارس الطبية بل ذكر أنّ من الأطباء من منحوا دورهم لتكون مدارس كالدخوار[1] في القرن الـ13.

(1) عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار (1170-1230م) ولد ونشأ بدمشق. تولّى النظر في البيمارستان النوري، وبعد أن تولى الملك الأشرف دمشق سنة 626هـ، تولّى رئاسة الطب، من آثاره: "الجنينة"، "شرح تقدمة المعرفة"، "مختصر الحاوي للرازي" في الطب، إلخ.

بالقاهرة (عديد المستشفيات أشهرها مستشفى الفسطاط) مكة والمدينة (أحد المستشفيات أُنشِئَ في القرن التاسع وأعيد تجديده في القرن الـ15 من طرف الشريف حسن)، المغرب العربي فيه عديد المستشفيات وبالأندلس وجدت المستشفيات بداية من القرن الـ12.

واهتمّ الأندلسيون بإنشاء حدائق النباتات الطبية Jardins Botaniques (ابن عوّام). عرّف بنظام الشرطة للمراقبة الطبية فضلا عن تقدّم المتطببين إلى امتحان لنيل الإجازة في الطبّ من طرف أساتذة أكفّاء (ابن البيطار رقيب على العشّابين مثلا وعلي بن رضوان بمصر رئيس الأطبّاء يمتحن كفاءتهم). أشار إلى توارث الطب داخل العائلات (على سبيل المثال آل بختيشوع في الشرق- آل زهر في الأندلس).

المجلّد الثاني : الكتاب الخامس خصّصه للقرن الـ12: (4) أطباء بفارس، (23) بالعراق، (15) بسوريا، (14) بمصر، المغرب طبيب (الإدريسي)، الأندلس (27) طبيبا.

الكتاب السادس خصّصه للقرن الـ13 : فارس (12) طبيبا، العراق (16)، سوريا (41)، مصر (18)، الأندلس (26).

الكتاب السّابع خاصّ بقرون الانحطاط (14-15-16-17 و18) : بعض العلماء والأطباء في القرنين 14و15 بالشرق (25) اسما، بالأندلس (14) اسما.

القرون 16-17 و18 : 9 أسماء، 23 (في مرحلة سمّاها غامضة)، بفارس 23 اسما.

هكذا نجد مجموع سير العلماء المذكورة في كتاب "تاريخ الطبّ عند العرب" 763 سيرة تمثّل مدوّنة هذا الكتاب ليست كلّها للأطباء وإنّما ذكر الفلاسفة وعلماء الكيمياء والرّياضيات والعشابين والجغرافين والمؤرّخين إلخ. ولم يكتف بمشاهير الأطباء بل ذكر من هم من طبقة ثانية ممّن لم يذكر عند غيره من المؤرّخين كعبد الرزاق الجزائري. ذكر أيضًا أسماء بعض العظماء من الأمراء المشجّعين للعلوم أو المتسبّبين في انتكاستها. ولا ننسي الإشارة إلى أنّ هذا العدد تضخّم بتكرار بعض الأسماء أكثر من مرّة واحدة.

الكتاب الثّامن: كيفية انتقال العلوم العربية عبر اللاتينية واليونانية إلى الغَرب. أعطى نظرة شاملة عن الترجمات:

المترجمون الأوائل : جربار Gerbert، هيرمان كنتركت Hermann Contract، قسطنطين الإفريقي Constantin l'Africain[1].

(1) قسطنطين الإفريقي (نحو 1020-1087م) طبيب تونسي ولد في قرطاج. تنصر وأقام في الدير البنديكتي بمونت كاسينو. اشتهر بترجمة مدوّنة أطباء بيت الحكمة بالقيروان وهم: إسحاق بن عمران البغدادي، وإسحاق بن سليمان المصري أستاذ أحمد بن الجزار القيرواني، بالإضافة إلى كتب الرازي وعلي بن عباس التي اعتمدت لتطوير تدريس الطبّ في مدرسة سالرن Salerne بإيطاليا. فصارت المدرسة بفضل ترجماته نقطة إشعاع وانطلاق لانتشار تعليم الطبّ في شتّى الجامعات الغربية التي تأسست بعدها.

الترجمات إلى اللّاتينية: بطليطلة قام بها (22) مترجمًا.

ترجمات أوروبا الوسطى قام بها (19) مترجمًا.

عرّف لوكلير بهم جميعًا، وقد بلغ مجموع عددهم (45) مترجمًا. أمّا العلماء المترجمَون من العربيّة إلى اليونانية، فهم علماء يونانيون (14) وعلماء عرب (54).

2. تـرجمـــاتـه

❁ *"كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب"*

لعبد الرّزاق بن محمّد بن حمادوش الجزائري

أوّل كتاب عربـيّ في الطبّ شدّ اهتمام لوسيان لوكلير بالجزائر، هو كشف الرموز، فلم يتأخّر عن ترجمته.

بدأ ترجمة هذا الكتاب بمقدّمة لبيان قيمته ولماذا ترجمه، وذكر مراجع المؤلف ولم يتوسّع في التعريف بسيرته لأنّه لم يجد معلومات كافية عنها فاكتفى بالقول: إنّه عاش في القرن الـ18 وتوفي بمكّة أثناء الحج 1130هـ/1718م. ولم يذكر تاريخ مولده[1]. علـم بالكتاب من الأهالي واستطاع الاطلاع على مخطوطة له من المكتبة الوطنية الجزائرية سنة 1857م بفضل السيد بربروڤار

(1) قيل على سبيل الظنّ إنّه عاش أكثر من 90 سنة. ولد بالجزائر من عائلة بسيطة تعمل في الدّباغة إذن حوالي 1627. تزوج مرّتين وله ولدان على الأقل من زوجته الثانية مات أحدهما صغيرا.

Berbrugger[1] وقارنه بمخطوط ثان على ملكه سنة 1861م.

أحصى مراجع كشف الرموز التي اعتمدها المؤلف لكتابه فوجد داود الأنطاكي على رأس القائمة (40 مرّة)، يليه ابن البيطار (أكثر من 10 مرات)، ثمّ ابن سينا، ثمّ أطباء يونان (ديوسقوريدس وجالينوس وبول الإيجيني)، هذا بالإضافة إلى الدّمياطي والقزويني ويوحنا بن ماسويه والصّقلي الشريف الإدريسي والتلمساني أو الشيخ زروق، وأشار إلى بعض الرّوم المعاصرين للمؤلف وهم الإسبان.

أمّا محتوى الكتاب فهو مرتّب حسب الألفبائية (حوالى 1000 من الأسماء يمكن أن يُحذف منها المرادفات التي يبلغ عددها حوالي 200). وتتمثّل أهمية هذا الكتاب بالنسبة إلى لوكلير في ذكره للاستعمالات الطبية عند الأهالي وذكر الأسماء الجزائرية (عربية وبربرية) للأدوية والنبات، وهناك إضافات لأدوية لم تكن موجودة في كتاب داود الأنطاكي[2]. واعتبر لوكلير أنّ منهج ابن حمادوش، هو منهج علمي يعتمد الكتب الأصول يونانية كانت أم عربية؛ فالطبّ اليوناني موجود دائمًا بالمصطلحات وبنظرية الأمزجة لجالينوس، ثمّ إنّه لاحظ أنّه لا يقول بالخرافات ولا بالشعوذات السائدة في الطبّ الشعبي[3]،

(1) أدريان بربروڤار، ولد في باريس في 11 ماي 1801 وتوفي في الجزائر العاصمة 1869. هو عالم آثار فرنسي وفقيه في المصادر المكتوبة (فيلولوجيا). اختص في تاريخ الجزائر وفي آثارها ومصادرها المكتوبة.

(2) يذكر لوكلير منها .Squine, Quinquina, Salsepareille, Sassafras, gayac

(3) "وللبادية من أهل العمران طبّ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارث عن مشايخ الحيّ وعجائزه =

ويتحدّث عن الأمراض الأوروبية وأدويتها كمرض الزهري الذى سمّاه المرض الإفرنجي. ومدوّنته فيها الأعشاب الطبية الموجودة في الجزائر أضاف إليها ما رآه في الشرق عند رحلته. عامله لوكلير في ترجمته بنفس المنهج الذي اعتمده في كلّ ترجماته وأدخله في كتابه "تاريخ الطبّ العربـيّ" بوصفه آخر طبيب مشهود له في المدوّنة العربية وفي القرن التاسع عشر. وتتمثّل أهمية هذه الترجمة في أنّها ترجمة نقدية أغناها لوكلير بما كان يضيفهُ من ملاحظات وتعليقات تدلّ على سعة الاطلاع على كلّ المراجع السّابقة اليونانيّة والعربية والغربية.

إلا أنّنا لاحظنا في تعريف لوكلير لابن حمادوش أنه فاتته معلومات كثيرة كشفها باحثان جزائريان معاصران[1] من ذلك أنّ

= وربما يصحّ منه البعض إلا أنّه ليس على قانون طبيعي، وعلى موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب الشعبي الكثير". تعريف ابن خلدون بالطبّ الشعبي من المقدمة، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت 1979، المجلد 1 ص546.

(1) القاسم سعد الله "رحلة ابن حمادوش المسمّاة لسان المقال في النّبأ عن النسب والحسب والحال". تحقيق وتقديم وتعليق، المؤسسة الوطنيّة للكتاب الجزائر 1983.

- وافية نفطي، جامعة محمّد خيضر بسكرة، مقال "مسألة علوم الطبّ والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني" في آفاق فكريّة، المجلّد 05 العدد 10 ماي 2020، ص.ص 20-53. تحدّثت الباحثة عن الرّعاية الطبيّة في ذلك العهد ووضحت عيوبها ونقائصها والأسباب التي جعلت الطبّ متخلّفا إزاء الطب الأوروبي. وذكرت عدم اهتمام الحكام بصحّة الأهالي فلم ينشئوا الجامعات ولا شجّعوا الطلبة على =

ابن حمادوش لاستغراقه في العلم فقد تجارته وعائلته: "انشغاله الشديد بالعلم وخسارته في التجارة وفقره أثّر على علاقته بأسرته فلم يكن سعيداً مع زوجته الثانية ولا مع أمّه وأخته حيث خرجوا [كذا] عنه"[1].

وأنّ كتاب "كشف الرموز" هو جزء من مدوّنة طبية ضاعت[2] أشار إليها ابن حمادوش في رحلته وعنوانها "الجوهر المكنون في بحر القانون".

ويذكر القاسم سعد الله أنّ ابن حمادوش بدأ بتأليف تلك المدوّنة، كما ذكر في رحلته، في يوم الاثنين أوّل يوم من ذي الحجّة 1157هـ/1745م، وأورد مقدمتها وعناصرها إذ تتكوّن من الكتاب الأوّل: في السّموم وذوات السموم وعلاجها،

= التعلّم. وتفشّى الجهل وراجت الشعوذة وادعاء التطبيب عند أميّين لا يفقهون شيئا في نطاق ما يسمّى بالطبّ الشعبي وأشارت الباحثة إلى تتالي الأوبئة وكثرتها".

(1) كتاب الرحلة، ص115 عن القاسم سعد الله.

(2) لابن حمادوش أربعة مؤلّفات معروفة "كشف الرموز"، "رسالة في الطاعون" ومقالة من 20 صفحة في الأمراض التناسلية والباءة "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج" وكتاب "الرحلة..." لكن في وكيبديا نجد حوالي 14 مؤلّفا في شتّى المواضيع: فلك، روزنامة، اسطرلاب، متفجرات، رصد الشمس، صورة الكرة الأرضية، المنطق، النحو، والمقامات. لا ندري هل ذكرها ابن حمادوش في كتابه "الرحلة"؟ هل ضاعت؟ هل بقيت منها بعض المخطوطات محفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية؟

الكتاب الثاني: في الترياقات وما يجري مجراها إن وجد من البادزهرات وبعض المعاجين، الكتاب الثالث: في ترتيب الأمراض، والكتاب الرابع: في حلّ ألفاظ المفردات وتعريفها.

فرغ من تأليفه في يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول 1158هـ/1745م، وذكر أنّه تفرّغ لتأليفه مدّة 4 أشهر حيث قال: "وبقيت منكبًا على التأليف المذكور".

ويبدو أنّ الكتاب الرابع هو الذي وصلنا بعنوان كشف الرّموز.

أشار الباحث إلى ما قرأه ابن حمادوش، وذكر أنّه لم يجد مدرسة للطبّ في الجزائر يمكنه ارتيادها فذهب إلى المغرب والتقى في فاس بطبيب السلطان المغربي الخاصّ وحاشيته "عبد الوهّاب أدراق"، وكان يخصّص للعامّة الضحى للتفسرة[1] والعشية للأسئلة، وهو عالم متميّز نهل ابن حمادوش من علمه ومدحه بقصيدة[2].

فالأغلب على ابن حمادوش أنّه عصامي التعليم موسوعي التكوين قرأ كتب الطب القديمة بداية من اليونان إلى داود الأنطاكي،

(1) هي قارورة البول التي تفسر للأطباء نوع المرض من خلال لونه.

(2) في مقال منشور في وكيبديا نجد إضافة لمجموعة من الشيوخ من الجزائر أخذ منهم العلوم التقليدية لذلك العصر كما أخذ عن محمّد زيتونة ومحمد الشافعي من تونس. وأجيز علميّا من شيوخ بالمغرب ولكن لا نعلم هل كانت إجازته في الطبّ أو في علوم أخرى، بما أنّ المقال أشار إلى معرفته الموسوعية والمتنوّعة: في علم النبات والصيدلة والطب والفلك والمنطق والنّحو والأدب.

واعتمد المنهج التجريبي، وله رحلات للاطلاع مباشرة على الأعشاب، وهو عارف بفوائدها. وذكر أنّه تعلم علم النبات على أشهر العشّابين بالجزائر "محمد كحنبل"، وقال في رحلته: "أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"، لكن لم يُذكر عنه أنّه مارس مهنة الطبّ في داره أو في دكّان كما قال الباحثان. مهما يكن من أمر، فإنّ إدراج لوكلير لعبد الرزق الجزائري في كتابه تاريخ الطبّ العربي يُعتبر إضافة هامّة تُحسب له.

❁ *مقالة في الجدري والحصبة للرّازي*

ترجمة لوسيان لوكلير ولونوار Adolphe Lenoir[1]

هذا الكُتيّب لقي الاهتمام الكبير من المترجمين الغربيين إلى اللّاتينية منذ أن عرفوا الرّازي وذلك لعظيم أهميته: أوّلاً لأنّه أكملُ كتابٍ في مرض الجدري الذي لم يُعرف عند اليونان، وثانيًا هو نموذج طريف لابتكار من ابتكارات العرب في الطبّ ألا وهو التشخيص المقارن كما قال د. محمود الحاج قاسم محمّد[2]:

---

(1) أدولف لونوار (1802–1860م)، طبيب مبرّز أستاذ بكلية الطبّ بباريس، جرّاح بمستشفى نيكر Necker مؤسس لجمعية الجراحة ورئيس لها. له الكثير من الأعمال من ضمنها موسوعة من 5 مجلّدات في علوم الطبّ والجراحة بالاشتراك مع لويس شارل روش Louis Charles Roche ولويس جوزاف سنسون Louis Joseph Sanson.

(2) في كتابه "الموجز لما أضافه العرب في الطبّ والعلوم المتعلّقة به" مطبعة الإرشاد بغداد 1974 بالصّفحتين 105 و106.

"لقد تفوّق الأطبّاء العرب في التشخيص غاية التّفوق بدرجة أنّنا قد نجيز لأنفسنا القول بأنّ ما نسميه اليوم بالتّشخيص المقارن هو من ابتكارهم وحصيلة عبقرياتهم، ونبني قولنا هذا على ما لمسناه في الأسلوب العلميّ والعرض الفكري الجميل الذي سلكوه في المقارنة والّذي قلّما نجد مثيلاً له في كتابات السّابقين [...] فمثلا في التفريق بين مرض الحصبة والجدري، وكذلك في التّفريق بين الأمراض كالقولنج، الحصاة، انسداد الأمعاء...".

وتتكوّن المقالة المترجمة من 58 صفحة تحتوى على:

1) مقدّمة للمترجمَيْن من ص 1 إلى ص 6 دون ذكر للاسمين.
2) إضافة إلى المقدّمة من صفحتين كتبها لوكلير بمفرده وذكر اسمه.
3) نصّ الرّازي المترجم من ص 9 إلى ص 47 وهذه ترجمة إلى الفرنسية واضحة جدّا مدعومة بملاحظات نقدية وشروح وردت مجمّعة إثر النصّ من الصّفحة 49 إلى الصّفحة 58.

وتتميّز الملاحظات بالاطلاع الواسع على الأعمال السّابقة التي ترجمت هذه المقالة إلى اللّاتينية، وتصحّح ما ورد فيها من أخطاء في الفهم لغوًا أو انعكاسًا للمعنى ناتجًا عن سوء فهم للنصّ، أو عدم تمكُّن من خصائص الخط العربي (التنقيط مثلا أوقع شانينف channing في كتابة "ميبة"← "مييّة")، أو غموض

الترجمة بإسقاط كلمات مثل "يمانية" بدل "بقلة يمانية"؛ بل وُجدت بعض الإضافات الزّائدة غير الموجودة في النصّ الأصلي. والمترجمان يشيران إلى أنهما لم يستفيدا على الإطلاق من بعض الترجمات السابقة كترجمة م.أ.دي سالس M.E de salles الذي عاب على الرازي عدم ذكر كلمة "عدوى"، وأنّه لم يدقّق في وصف دُمّل الجدري[1]. من خصائص هذه الملاحظات أنّها تعتمد الكتب الأصول اليونانية للتثبت والمقارنة والكتب الأصول العربية وأعمال المستشرقين؛ فنجد جالينوس وبلين مثلاً، ونجد ابن البيطار وابن وافد وداوود الأنطاكي، ونجد من المستشرقين عدداً كبيراً مثل ڤي دي شولياك Guy de Chauliac، سنقنيتي Sanguinetti[2]، شانينڤ، سنذيمر Sontheimer[3] فورسكال Forskal.

ونجد في التعليقات أيضًا تفسيرات لأسماء أطعمة، كالسكباج

---

(1) رأى لوكلير وزميله أنّ معنى العدوى بديهي عنده يدلّ عليه كلامه فلا يحتاج إلى ذكره. أمّا مسألة التدقيق في الوصف فهي خاصّة بالأطباء العرب الّذين يتجاوزون ذلك إلى العلاج مباشرة متى اكتشفوا اسم المرض.

(2) سنقيتّي (1811–1883م)، ترجم فصولا من عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وترجم الوفيات للصفدي وبعض فصول كتاب "في الطب والعلاج العربيين" لشهاب الدّين القليوبي وذيله بمعجم للمصطلحات الطبيّة.

(3) البارون سُنذيمر (1788–1846) دبلماسي ومستشرق نمساوي، نشر ترجمة ألمانية للجامع... لابن البيطار، شتوتڤارت Stuttgart 1840–1842، مجلدان.

والفلوذج والسويق والاسفيذباج والكشك، بذكر مكوّناتها وكيفية إعدادها وتفسير صياغة الاسم إن كان عربيا أو فارسيا... كذلك في الملاحظات فوائد أخرى تتمثّل في تدقيق المصطلحات ودلالاتها على النّبات والحيوان والمعادن، مع إصلاح أخطاء من أخطأ في شأنها من المترجمين السّابقين بالإحالة دائمًا على الكتب الأصول، من ذلك مثلاً الملح الأندراني يُحدّد دلالته بإبراز خطأ من ادعى أنّه من أندر Andar (منطقة قريبة من حلب). كذلك يُعلّق لوكلير على زبد البحر وورق الخبز والجلاّب والطباشير الذي يعود إليه مرة ثانية ليزيد التوضيح باعتماد مرجع معاصر له يذكره لأوّل مرّة وهو "علم النّبات في المعرض العالمي لسنة 1855" للكونت جوبار Comte Jaubert.

ينبّه إلى المرادفات (زرْشك/امباريارس) وإلى معاني بعض الأمراض مثلا "ورشكين" "Angine de Poitrine"، مع ذكر أصل الكلمة الفارسي المتكوّن من كلمتين (achekin+ouar) (ور+ شكين).

إنّ الملاحظات الواردة تدلّ دلالة واضحة على أنّها من أسلوب لوسيان لوكلير الذي نجده في كلّ ما ترجمه من كتب عربية، ككتاب عبد الرزّاق الجزائري، أو ابن البيطار، أو الزهراوي. ومعرفته الواسعة للتراث الطبي العربي تتجاوز، بلا شكّ، معرفة الأستاذ لونوار الذي حاول ترجمة الكتاب ولم يستطع إلّا بمساعدة لوكلير؛ إذ رغم أنّه طبيب متميّز لكن لم يُعرف عنه أنّه

مستشرق متمكّن من العربية. فلعلّه لم يتدخّل في الترجمة إلّا من خلال الترجمات اللّاتينيّـة السّابقة التي بيّن لوكلير في كلّ ترجماته - وبالخصوص في ترجمته لكتاب الجامع لابن البيطار - ما فيها من أخطاء متنّوعة وكثيرة ومحرّفة للنصوص العربيّة. يشير لوكلير في إحدى ملاحظاته إلى أنّ هناك طبيبًا، مات في عُمر متقدّم أوصله إلى بدء حكم هرقليوس Héraclius[1] ويُسمّى هارون Aroun ذكره الرازي على أنّه كان أوّل من تَحدّث عن الجدرى لكن لم يبق لنا من كتاباته إلّا شذرات استشهد بها الرّازي، وفي هذا إشارة من لوكلير إلى ما لدى الطبيب العربي من أخلاقيات تمنعهُ من انتحال ما لغيره.

❁ ***"جامع مفردات الأدوية والأغذية"* لابـن البيطـار**

طُبع هذا الكتاب مرّتين[2]، ويتكوّن من ثلاثة مجلّدات.

المجلّد الأول (478 ص) : في المقدّمة عرّف لوكلير بأقطاب هذا العلم بالأندلس ممّن استفادوا بكتاب ديوسقوريدس الذي ترجمه في المشرق من اليونانية إلى العربية اصطفان بن بسيل. ثمّ

(1) هرقليوس هو إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية، بدأ صعوده إلى السلطة عام 608، قاد ثورة ناجحة ضد الإمبراطور فوقاس. أيضًا يعتبر مؤسس السلالة الهرقلية التي استمرت في حكم الإمبراطورية البيزنطية حتى عام 711.

(2) انظر قائمة المؤلّفات.

تُرجم إلى اللاتينية التي يفهمها أهل الأندلس من طرف نقولا الرّاهب بتشجيع من الملكين عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم من بعده. ذكر لوكلير الأسماء الأندلسيّة الشهيرة: ابن وافد، والغافقـى، وابن حجّاج، وابن العوّام والشريف الإدريسي، وأبو العبّاس النباتي[1]. وبيّن أنّ ابن البيطار، لطول إقامته بالمشرق، نسبه المؤرّخون إليه. والحال أنّه أندلسيّ أصيل إذ مولده بالأندلس وتكوينه أندلسي- مغاربيّ رغم طول إقامته بالمشرق.

ذكر لوكلير تاريخ مولده وأعماله ورحلاته وصداقته مع أشهر مؤرخ للطبّ، وهو ابن أبي أصيبعة. ثمّ أحصى مراجع الكتاب فإذا هي 150 مرجعًا، بل اهتمّ بتعداد كمية الشواهد المأخوذة من أصحابها[2]. وبعد ذلك حدّثنا عن منهجه في تقديم المعلومات وأشار إلى خطإ المؤرّخين في قولهم: إنّ ابن البيطار

(1) وخصّ هذا الأخير بملاحظة مميّزة في قوله "يبدو لنا أبو العبّاس النّباتي، في مجال علم النّبات، من بين كلّ العلماء العرب، أفضلهم على الإطلاق من حيث دقّة الملاحظة، وعنوان شرف أبي العبّاس النّباتي أيضًا يتمثّل في أنّه كان معلّم ابن البيطار وملهمه للقيام برحلات البحث البعيدة في مجال علم النّبات".

(2) الرازي 400 مرّة، ابن سينا 300 مرّة. الغافقى والشريف الإدريسي 200 مرّة، اسحاق ابن عمران وابن ماسويه 160 مرّة، ابن ماسة وأبو حنيفة الدّينوري 130 مرّة، مسيح بن حكم وأبو العباسي النّباتي 100 مرّة. الفلاحة النبطية، ماسرجوية، التميمي الطبري وحبيش بين 60 و70 مرّة. بالإضافة إلى 30 شاهدا هنديّا.

زاد ألفي نبتة لم يذكرها ديوسقوريدس Diocorides، والصحيح أنّه لم يضف إلا حوالي 200 نبتة، وهذه في حدّ ذاتها إضافة عظيمة في رأيه، وعلّل خطأ المؤرّخين بكثرة المرادفات.

المجلّد الثّاني (492 ص) : نبّه لوكلير في مقدّمة المجلّد الثاني إلى أنّه تعمّد، وبموافقة المستشرق دارمبارف Daremberg[1]، إسقاط أقوال ديوسقوريدس وجالينوس لأنّها معروفة موجودة بين أيدي الباحثين وذلك لعدم إثقال الكتاب وإبراز الإضافة العربية.

المجلّد الثالث (483 ص) : فيه دخول مباشر إلى المادّة المترجمة، وينتهي الكتاب بالفهارس: **1**- فهرس الأسماء العربية من ص433 إلى 461، **2**- فهرس الأسماء بالفرنسية واللّاتينية من ص461 إلى 479 (خلْطٌ بين اللّغتين)، **3**- فهرس الأسماء اليونانية من ص 482 إلى 483. هذه الفهارس في رأينا محدودة الفائدة ومنقوصة، وكان يمكن أن تقدّم بطريقة أوضح تجمع في جداول مفصّلة لأسماء الموادّ بالعربية إزاءها الاسم باللّاتينية ثمّ بالفرنسية، أمّا الأسماء اليونانية التي كتبت باليونانية فكان يحسن أيضًا كتابتها باللّغات الثلاث.

(1) شارل فيكتور دارمبارف Charles Victor Daremberg (1817-1872)، طبيب مؤرخ للطبّ مشهور وحافظ مكتبة.

في البدء أهدى لوكلير هذا العمل إلى الدكتور س.ف دارمبارڤ. مع "تحية احترام واعتراف".

وختم ترجمته للكتاب بقوله بالصفحة 342 "هنا انتهى البحث في الجراحة، وهو تتويج للكتاب المعروف بعنوان "التصريف" وهو أيضًا تكملة له ليستعمله من ليست لديهم الأعمال الكاملة لأبي القاسم خلف بن عبّاس الزّهراوي غَفر الله له إن كان قضى حياته على الطريق المستقيم!"

بدأ لوسيان لوكلير بعرض محتوى الكتاب في صفحتين، وهو يدرك منذ البداية أنّه اقتحم مغامرة لا تقدم عليها إلاّ المراكز العلمية الكبيرة- كما قال في المقدّمة- آملاً أن يكون عمله موفّقًا راجيًا القارئ بكلّ التواضع أن يتسامح مع النقص إن كان.

تتكوّن المقدّمة من أربع عشرة صفحة ختمها بقوله "الحمد الله". مكتوبة بالحروف اللّاتينية Elhamdou lillah وكتب مكانها وتاريخها: الجزائر في 12 يونيو 1861.

وذكر ضمنها سببًا آخر دفعه إلى ترجمة كتاب الزّهراوي يتمثّل في أنّ تكليفه بعلاج الجزائريين منذ 1841 في ذرعان Dréan[1] ثمّ في قلعة نابوليون Fort Napoléon في 1857، نسج له علاقة

(1) الذرعان مدينة وبلدية بدائرة الذرعان ولاية الطارف الجزائرية، يعود تأسيسها إلى الحقبة الاستعمارية حيث كان اسمها موندوفي Mondovi في عهد الاستعمار الفرنسي للجزائر، ارتقت إلى بلدية سنة 1848.

متينة بالأهالي وانشغل بالتعرّف على حضارتهم وأفكارهم ولغتهم وطبّهم. يقول: "وحاولت جمع ما لديهم من بقايا هذه المعرفة الطبيّة التي كانت قديمًا عظيمة الازدهار"، ومنها كتاب الزّهراوي هذا. يقول ص3: "أمّا عن قيمة أبي القاسم فإنّنا لا نفكر في وجوب إثباتها بل نحيل في ذلك على سلطات معرفيّة أكثر منّا كفاءة، نحيل إلى مؤرّخي الطبّ، نحيل إلى سبرنجال Sprengel، بورطال Portal وهالّر Haller إلخ. ونقول فقط: إن أبا القاسم يتصف بخاصية هي له وحده في رأينا، فهو حقًّا شخصية بارزة عند العرب".

قدّم كلّ ما اعتمده من مخطوطات لهذا الكتاب بالتفصيل، ونقد كلّ الترجمات اللّاتينية السابقة واستخرج نقائصها، واعتمد مراجع للمقارنة والتمحيص تبلغ أكثر من 50 مرجعًا (ما بين 17 عربية و37 غربية).

تحدّث بعد ذلك عن حياة الزّهراوي، وأشار إلى قلّة المعلومات عنه رغم شهرته في الغرب الإسلامي وفي المشرق أيضًا. ثمّ قال: "ما لفت انتباهنا هو أن شهرة ابن رشد تجاوزت كثيرًا شهرة الزّهراوي عند معاصريه وعندنا، ممّا يبرّر شكوكنا في العصر الذي عاش فيه". فجهل المترجمين الغربيين بسيرته جعلهم ينسبونه إلى القرن الثاني عشر. لكن الزهراوي موجود في كتب المؤرخين العرب؛ فقد خصّه ليون الإفريقي Léon l'Africain[1] في تأريخه للأطباء

(1) وهو حسن الوزّان (نحو 1495- قبل 1550)، ولد بغرناطة ونشأ في فاس. كلّفه بنو وطّاس بجنوب المغرب بمهامّ ديبلوماسية، حجّ إلى مكّة، زار =

والفلاسفة المسلمين بفقرة. واكتفى لوكلير بما كتبه المستشرق كزيرى Casiri إلى شانيف الذي نشر كتاب الزهراوي وفيه تاريخ مولده ومكانه وأعماله المتميّزة نظريًا وتطبيقًا.

وعبّر عن رأيه عند المقارنة بينه وبين ابن سينا بإبراز نقاط الائتلاف والاختلاف، فقال: إنّهما جرّاحان معتَبران، لكنّ الفرق بينهما يتمثّل في أنّ ما كتبه الزهراوي في الجراحة فيه منهج اعتمده لمعالجة أنواع الأمراض التي تستدعي الجراحة كلّ مرض على حدة. هذا التفصيل والتوضيح جعل كتابه في المتناول، بينما ابن سينا، ولئن تفوّق عليه أحيانًا، فقد كتب كتابًا ضخمًا لا يستطيع استعماله إلاّ القليل من أهل الاختصاص. تحدث عن قيمة الزّهراوي كطبيب جرّاح وأشاد بفكره الحصيف والنقديّ والحَذِر، فهو طبيب متمرّس عميق التجربة: "بدا لنا أبو القاسم قليل التقليد ينطلق في أغلب الأحيان من تجربته الشخصيّة". أبرز لوكلير بالخصوص جانبًا في كتاب أبي القاسم يمنحه طابعًا خاصًّا له طرافتهُ الحقيقيّة ألا وهو وصف أدوات الجراحة وتدعيم الوصف بصور لها. فقال: "فإن لم يكن الكتاب الوحيد المصوّر، باستعمال عبارة معاصرة، الذي أنجزه القدامى، فهو على الأقلّ الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا بهذا الشكل، وأبو القاسم جدير بأن يُعتمد مرجعًا دائمًا فهو عَلامة تُذكر في تاريخ

= الآستانة وأسره القراصنة فسيق إلى نابولي بإيطاليا، اعتنق المسيحية في روما. توفي في تونس. له "المعجم العربي العبراني اللاّتيني" و"وصف إفريقيا".

الجراحة". ويضيف: "قُلنا إنّ تأثير أبي القاسم في تطوّر الجراحة بالغرب كان عظيمًا، فأوّل الجراحين الإيطاليين كروجي دي بارم Roger de Parme ولنفرنك Lanfranc وقيوم دي سليسات Guillaume de Salicet لم يتردّدوا لحظة واحدة في استيعابه"؛ بل يتهّمهم بالانتحال: "نعلم أنّ الجراحين الإيطاليين الأوائل مثل روجي دي بارم وقيوم دي سليسات ولنفرنك نهبوا أبا القاسم وتزينوا بما غنموا منه، نسجّل هذه الحقائق لنردّ إلى مؤلّفنا حقّه في تطوير الجراحة في إيطاليا وفي أوروبا". كذلك الأمر في الجراحة الفرنسية فإنّ: «قي دي شولياك أبا الجراحة الفرنسية يذكره وينقل عنه باستمرار. فاسم أبي القاسم مذكور أكثر من مائتي مرّة في كتاب "الجراحة الكبير" سواء باسمه المعروف أو في شكل التحويرات المتنّوعة لاسمه أبو القاسم Abulcasis، خلف Galef، الزّهراوي Azaram.

وفابريس دكوابندنت Fabrice d'Aquapendente يعترف بـ«أنّه مدين جدًّا لثلاثة رجال: سالس Celse[1]،

(1) سالس اسمه الكامل أولوس كرنيلوس سلسوس Aulus Cornelius Celsus ولد بإيطاليا (فرونا Verona) في 29 ق.م وتوفي في 37م. يسمّى أبقراط الرّومان في الطبّ، هو كاتب موسوعي: طبّ-فلاحة-بلاغة-فلسفة-قضاء- فن عسكري، لم يبق من كتبه إلا "في فن الطبّ" " De Arte Medica" وهي موسوعة تتكوّن من ثمانية كتب خصّص الكتاب السابع والثامن للجراحة وجزءا آخر للأورام السرطانية ووصف 250 نبتة. تمتاز كتابته بالوضوح والدقة وكتابه الموسوعي طبع في 1478.

بـول Paul[1] وأبي القاسم Abulcasis». ثمّ يذكر الترجمات العديدة لكتاب الزّهراوي بكلّ تفاصيلها إلى اللّاتينية والعبرية وغيرها. ويمدح الحضارة العربية في بلاد الأندلس وما قدّمته من ثروات في شتّى المجالات التي منها المجال الطبيّ وما يتعلّق به؛ فيقول: "تبيّن أنّ العرب الأندلسيين كانوا جديرين بتلك الأرض الجميلة، فنحن نعلم كم أضافت أعمالهم إلى خصوبتها وكم أعطوا إسبانيا من ثروات لم تحصل عليها من بعدهم. لم يستثمروا في موادّ أرض الإسبانيين فحسب بل استجلبوا موادّ جديدة"[2].

3. منهجه في كتاب "تاريخ الطبّ العربي" وفي الترجمات :

اعتمد لوكلير منهجًا موحدًّا في كلّ ما كتبه، سواء أتأليفًا أم ترجمة أساسه الاطلاع بتوسّع وتثبّت ونقد لكلّ ما كُتب قبله بالعربية وباللّاتينية وبالفرنسية، لتحديد النقائص والأخطاء حتى

---

(1) بولس الإيجيني (625-690) الملّقب عند العرب بالقوابلي لتخصّصه في أمراض النساء. اشتهر بكتاب هو موسُوعة من سبعة كتب لخّص فيها مجموع المعارف الطبية في الامبراطورية البيزنطيّة. ترجم له حنين ابن اسحاق "الكناش في الطبّ" وكتاب علل النساء. لغته اللّاتينية.

(2) لمعرفة جميع ذلك يراجع كتاب "ما تدين به الثقافة الغربية لعرب إسبانيا" لجول فرني.

Jules Vernet. *ce que la culture occidentale doit aux Arabes d'Espagne* , traduit de l'espagnol par Gabriel Martinez-Gros, Sindbad, Original 1978, la traduction 1985.

لا يقع في مثلها، من ذلك مثلاً إشارته إلى ما وقع من الإهمال أو التّجاهل للكثير من الأطباء العرب الّذين لا يستحقون ذلك الإهمال والّذين أدرجهم في كتابه "تاريخ الطبّ العربي". ويعمد كذلك إلى الاحتكام إلى الكتب الأصول[1] في الطب، وإحصاء المخطوطات ومراجعتها، وسير العلماء ومقارنتها وتأطيرها تاريخيًّا وسياسيًا في المكان وفي الزّمان. كذلك الشأن في تقديم المعلومات التي يترجمها ويعلّق عليها فيشير إلى ما فيها من أخطاء فيصلحها، أو يثمّن ما فيها من إضافة ليبرز بها فضل الطبّ العربي.

(1) يلحّ لوكلير على الكتب الأصول التي اعتمدها وعلى أهميتها لمصداقية العمل: "الفهرست" لابن النديم، "تاريخ الحكماء" للقفطى، "عيون الأنباء" لابن أبي أصيبعة، "كشف الظنون" لحاجي خليفة، "وفيات الأعيان" لابن خلكان، إلخ. فضلا عن مخطوطات مكتبة الإسكوريال والمكتبة البريطانية والمكتبة الوطنية الفرنسية وينقد بعض المراجع كحسن الوزان Léon l'Africain الذي لا يثق بمعلوماته فناقشها بمناسبة حديثة عن ابن البيطار وبيّن بالدليل أخطاءه. ومن المستشرقين، يذكر دو ساسي De Sacy بخير رغم نقده له في إحدى مقالاته في مجال ترجمة عبارة عربية. ويقدر من معاصريه مشو Michaud وديدو Didot لأنهما نهلا من الأصول. وينقد كتاب روسي Rossi لأنّه في رأيه مجرّد موجز يُذكر ولا يُعتمد. أمّا كرمولي Carmoly فهو عنصري تنقصه الموضوعية في كتابه "تاريخ الأطباء اليهود"، ويشير إلى قراءة لشمولدزر Schmoelders ومونك Munk ورنان Renan ورينو Reinaud وجوردان Jourdain وسنقينتّي Sanguinetti.

وبالنسبة إلى مؤلّفه "تاريخ الطب العربي" فقد ركّز على الاهتمام بما يحيط بالطبّ من أحداث وإطار تاريخي فكريّ فلسفي عامّ لازدهاره أو انحطاطه. وتتبع المراحل التاريخية لكلّ قرن وفي مختلف المناطق التي ازدهرت فيها الحضارة العربية- الإسلامية الموزّعة على مساحة شاسعة. وقدّم لمحات عامّة عن الخاصّيّة العلمية لكلّ قرن ولكلّ منطقة في فصل خاصّ، وأردف كلّ ذلك بالتأريخ للمدارس والمؤسّسات الطبية والعلمية وللمستشفيات.

ولم يكتف بسرد الأحداث وقائمات الكتابات؛ بل تعمّق بالخُصوص بالنسبة إلى الأطبّاء المتميزيّن في استخراج ما يميّزهم من غيرهم ممّا كان له دور في تطوير العلوم.

ثمّ اهتمّ بالطبقات الثانية والثالثة من الأطباء فلم يهملها بل أحصاها؛ لا لأهمية الطبيب في حدّ ذاته، بل لأهميته ضمن مجموعة يمكن أن تمثل تيّارًا علميًّا ما. ولم يستعرض قائمة مطوّلة للمؤلفات التي كتبها كلّ طبيب؛ بل اقتصر على ما له صلة مباشرة بالطبّ، ثمّ اختار من باقي المؤلفات ما يزيد في إلقاء الضوء على الكاتب أو على الموضوع وذلك لأنّ من الأطباء العرب من هو موسوعي كتب في مواضيع شتّى (مثلا الرّازي له 200 مؤلّف ومثله الكندي).

اهتمّ لوكلير أيضًا بعلوم أخرى غير علوم الطبّ والطبيعة، كالرياضيات والفلسفة، ليبرز قيمة العقل العربي في العلوم النظرية والتطبيقية معًا دحضًا للأحكام المسبّقة الشائعة عنهم. إذ يقول

في مقدمة كتاب تاريخ الطبّ العربي: "قيل إنّ العرب لا يمتلكون الموهبة العلميّة دون تقديم الأدلّة على ذلك. أمّا نحن فقد رأيناهم يأتون بالنّور وبالنظام في علوم الرّصد والملاحظة مع شغفهم في الوقت نفسه بتنمية العلوم النّظريّة". واجتهد لوكلير ليبتدع لنفسه كتابة صوتية خاصّة به، في نطاق منهجه في أغلب كتبه المترجمة. فهو يكتب الكلمة بالعربيّة، ثمّ بأصوات اللّغة الفرنسية ثمّ يترجمها إلى الفرنسية، تتبعها اللّاتينية.

وبالرغم من جدّية اجتهاده وحسن نواياه في إرادة الإبلاغ الصحيح فإنّ اجتهاده جاء متأثّرًا بما كان يسمعه من الأصوات في اللّهجة الجزائرية، من هنا كانت كتابته الصّوتية تحريفًا للأصوات العربيّة الفصحى فوجدنا الجيم تكتب "دج" "dj": جمجمة Djoumdjouma، والثاء "تس" "ts": ثرب tsirb، والطاء "طه" الطيّب ettheyb، "في جراحة البطن" Fi djirah el bathn، والهمزة بحرف التاج للجيم: إوز Jouaz. فكانت كتابته الصّوتية مجرّد شعور فردي بالصّوت وليست كتابة صوتية علمية، فلو أدرك الألفبائية الصوتية العالمية[1] لما وقع في هذه النقيصة التي أحدثت شيئًا من الغموض؛ بل نعتبرها لا تُساعد الغربي على إتقان نطق

(1) الألفبائية الصوتية العالمية (API/IPA) ضبطت تدريجيا في نطاق الجمعية الصّوتية العالمية التي تأسست في 1886 بإدارة بول باسي Paul Passy. سبقتها محاولات عديدة وفي 1900 صدرت أوّل محاولة عالمية وقعت مراجعتها عدة مرات (1932/1938/1947/1951/1989/1993/1996/2005).

الحروف العربية واستكشاف الكلمات؛ بل تدخل الضيم حتّى على الأسماء العلم العربية مثلا Hadji Khalfa لحاجي خليفة، فبعضها لا يمكن معرفته إلا متى كنّا على سابق معرفة بتلك الأسماء. من ذلك مثلا ابن أبي رمثة Ebn Abi Ramitsa ولا يكتب ابن "Ibn" إن كانت "ابن" بين الاسم واللقب فهو يكتبها كما تنطق في لهجات شمال إفريقيا، مثال ذلك عبد الرزاق بن حمادوش Abderrazak ben Hamadouch. نفس الغموض وجدناه في عناوين فصول كتاب الجراحة للزهراوي، من ذلك مثلاً: استعمال حرف "r" للغين فنجد العنوان بالفرنسية إلى جانب كتابة صوتيـــة للعنـــوان العربي لا يستطيع قراءتها إلّا من يعرف العنوان باللغة العربية: "الشقيقة غير المزمنة Ecchequiqua errir mousmina" بسبب هذه الكتابة الصّوتية. كذلك في مقالته عن ابن البيطار حيث حرّف اسم عبد الرّحمن النّاصر، قائلاً: ناصر بن عبد الرّحمن. كما حرّف عنوان كتاب "الجامع لمفردَات الأدوية والأغذية" فقال: "Djami-el-Moufridat". وأدخل في الذهن شيئًا من اللّبس عندما ترجم صطيفان بن بسيل بـإتيانEtienne بدل Stéphane لأنّ القارئ العربي لا يعرف أنّهما مرادفان في الفرنسية. والنّقيصة الأخرى تتمثّل في عدم التدقيق أحيانًا فيحدث الخلط؛ من ذلك ذكر بعض الأسماء كأبي الفرج دون التدقيق هل هو الأصبهاني أو غيره، أو تيودور Théodore هل هو المتطبب أو الراهب، أو تفسير معنى الاسم دون الإشارة إلى المرجع كاسم بختيشوع؛ فالمعروف أن الكلمة سريانية "بخت"

بمعنى "عبد" و"يشوع" بمعنى "المسيح"، فالاسم إذن مركّب تركيب إضافة ويعنى في العربية "عبد المسيح" وكان هذا الاسم موجودًا في جزيرة العرب قبل الاسلام. إلا أنّ لوسيان لوكلير ذكر معنى آخر مغايرًا حين قال:" Bakhtichou dont le nom signifie la fortune du christ"، أي ما تأويله "هبة المسيح"، أو "محظوظ المسيح" ولا ندري من أين جاء بهذا التفسير إذ لم يذكر مرجعه.

وفي الحديث عن الطبّ النبوي يوجد ما يحتاج إلى التثبت من الأحاديث: هل هي كلام الرّسول أو كلام غيره، وهل إباحة بعض المحرّمات طبيًّا من عمل الرسول أو من فتاوى أصحاب المذاهب اعتمادًا على القرآن كالآية من سورة الأنعام (الآية 119) «[...] وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ [...]». هذه مجرّد إشارات بسيطة إلى ما يمكن أن تستخرجه ترجمة ناقدة متثبّتة في المصطلحات وأسماء الأعلام وأسماء النبات والتواريخ وأسماء الكتب والأخبار...

أمّا ملاحظتنا الثالثة فتتمثّل في التّكرار الّذي لمسناه؛ سواء في المقالات أم الكتب؛ وسواء في نقد الترجمات اللّاتينية أم في الحديث عن الطبّ عند العرب. فقد وجدناه يُعيد بعض ما قاله في القرن الثاني عشر في الكتاب الموالي الذي عنوانه القرن الثالث عشر؛ بل لاحظنا تشابهًا كبيرًا بين مقدّمة الكتاب الخاص بالقرن الثالث عشر وخاتمته. على أنّه في رأينا تكرار لا يخلّ

كثيرًا بالمضمون لأنّه يقصد به التأكيد ونوعًا من "المطرقة" للقارئ الفرنسيّ قصد إقناعه فضلاً عن أنّه لا يخلو من الإضافة في أغلب الأحيان.

لاحظنا أيضًا أنّه لم يدقّق أحيانًا في ذكر عناوين الكتب؛ سواء العربية أو الغربية فيذكرها منقوصة أو محرّفة أو لا يذكرها أصلاً. لكن بالرغم من هذه النقائص فإنّ هذا الكُتيّب لا يفي بما أسداه لوكلير للحضارة العربيّة الإسلاميّة من حيث إبراز ما قدّمته للحضارة الإنسانية عامّة والغربيّة خاصّة من علوم، وبالذات العلوم الطبيّة وما يتعلّق بها من اختصاصات في مجالها.

فقد كان لسان دفاع فَصيحًا عنها وردّ في كلّ مناسبة أُتِيحت له على من ادّعى أنّ العرب ليسوا إلا مجرّد وسطاء ونقلة لعلم اليونان، مثل سوماز Saumaise[1] وغيره. ففضح نقصهم العلمي وبيّن أنّ قرينة اقتراض العربيّة من اليونانية ليست حجّة ضدّهم لأنّ الاقتراض هو وسيلة ضرورية لنقل العلوم عندما لا تكون اللّغة المنقول إليها مؤهلة بعدُ لذلك، ولا يختلف شأن العرب في ذلك عن غيرهم من الأمم، فالمعجم الإسباني خُمسه عربي، والمعجم الفرنسي المكوّن من مقترضات من حوالي ثلاثين لغة تأتي العربية في المركز الثالث منه. فهذا الحلّ هو ما جعل العربية

(1) سوماز (1588– 1653م)، هو عالم فرنسي باليونانيات واللاتينيات، ومشارك في دراسة الترجمات العربية عن اليونانية.

تقترض من اللّغات الأخرى (يونانية- لاتينية- فارسية...) في بدء انفتاحها على العلوم. يقول: "حين جاء الوحي المقدّس إلى الخلفاء العبّاسيين لتطعيم الجذع الإسلامي بالعلم اليوناني، شرعوا في عمل مليء بالصّعوبات كما بالعظمة. تلك الصعوبات لها علاقة بالرّجال وباللّغة. فالرّجال لا يمكنهم أن يفهموا كلّ شيء ولا اللّغة يمكنها التعبير عن كلّ شيء. فالكلمات لا يسبق وجودها وجود الأشياء، وفي انتظار أن يتكفّل الزمان وأن تأتي ترجمة تكمّل نقص الأخرى كان العدد الكبير من المترجمين مضطرين إلى الاحتفاظ بجزء من المصطلحات اليونانية مع استعمال التعبيرات التحليلية. هكذا حتّى بعد معرفة الكلمات المناسبة للترجمة، تواصلت بالتعوّد المحافظة على الكلمات الشاهدة على الجهل لها في البدء".

فالعربية وهي في أوجها أثرت في غيرها من اللّغات كما تأثّرت. يقول في حديثه عن مصطلحات ابن البيطار: "إن كان العرب قد تركوا أثرًا لا يُمحى لإقامتهم بإسبانيا في اللّغة الإسبانية، فقد اقترضوا هم أيضًا من لغة البلاد". فيثبت بمنهجه المقارني أنّ الحضارة أخذ وعطاء، لذلك كثيرًا ما أدان التعصّب والغرور والجحود الذي لا يتماشي مع الإطيقا الطبية والموضوعية العلمية والانفتاح الإنساني. وله في نقده نظر ثاقب لا يفلت منه شيء، من ذلك أنّه تنبّه إلى تعصّب الإسبان الذي كان يبدو واضحًا على

المخطوطات حين ذهب إلى الإسكوريال ويتمثّل في شطب اسم "محمّد" كلّما وجد فيها. ولم يتحرّج من التصريح برأيه ناقدًا أشهر المستشرقين الإسبان "كزيري" إذ قال عنه: "لم يفعل إلّا توثيق كتب الطبّ ولم يكن له من المعرفة الطبيّة ما يجعله يحسن التّعريف بها". وهو في تصريحه برأيه لا يبخل بالمدح على العلماء العرب وعلى زملائه المستشرقين، مثل ماتيول Mathiole ودو ساسي De Sacy[1]، بل لا يخجل من إبداء الإعجاب حتّى بنفسه حين ينوّه بما توصّل إليه من اكتشاف، من ذلك مثلاً عند قوله في ترجمته لمقالة الجدري والحصبة عن الكادي Pandanus odoratissimus: "هذا العقّار الهندي الذي يُتداوى به من الجدري، والذّى لم يتعرّف عليه أحد من المترجمين قبلنا". كذلك قوله إنّه أوّل من اكتشف نصًّا يمكن اعتماده لتحديد تاريخ الجدري. لا يعنى هذا أنّ لوكلير مغرور شديد الاعتداد بنفسه، وإنّما هو تعبير عن ثقته في أنّه بذل أقصى الجهد لتدقيق معلوماته فلا بَأس من التعبير عن رضاه وسروره بما وصل إليه من اكتشاف. ولا يفوتنا

(1) البارون سليفستر دو ساسي (1758- 1838م)، هو مستشرق فرنسي، عمل في معهد اللغات والحضارات الشرقية بباريس، ويُعتبر استاذًا للأساتذة في اللغات الشرقية ولا سيما اللغة العربية. درس اليونانية واللاتينية ثم العربية والعبرية. من مؤلّفاته "الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار" تأليف موفق الدين عبد اللطيف البغدادي، النص العربي مع ترجمة فرنسية.

القول إنّنا لاحظنا في أغلب كتاباته تواضعًا جمًّا، وطلبًا ملحًّا من القارئ أن يتجاوز عن أخطائه إن كانت. بل رأيناه يكتب كلاما مطوّلا ليعترف بخطئه في نسبة كتاب إلى غير مؤلفه، مُوَضّحًا الملابسات التي أوقعته في الخطأ، معتذرًا للقارئ وشاكرًا لمن دلّه على الحقيقة، وتلك أخلاقيات الباحث الحقّ.

وكما ينقد نفسه فهو لا يتحرّج من نقد غيره من المستشرقين لاسيّما منهم من لا يصبر على البحث الجادّ وعلى القراءة العميقة المتأنية للكتب الأصول من أوّلها إلى آخرها حتّى من هو معجب بهم أشدّ الإعجاب كدُو ساسي. إذ لم يتحرّج من نقده قائلاً: "السيد دو ساسي اقترض الكثير من كاتبنا لكن عوض أنْ يقرأه كلّه اكتفى بأن أخذ منه النّبذات التي كان يحتاج إليها"، و"كاتبنا" المقصود، هو ابن البيطار صاحب الجامع: "هذا المؤلّف هو خلاصة عظيمة للمادّة الطبيّة حيث نجد أصول الطبّ العربي وتطوّراته. ما من كتاب يمكنه تعويض هذا الكتاب ولا حتّى كتاب سيرابيون Sérapion[1] الذي يقاربه بشكله ولكنّه أبعد من أن يجمع ما فيه من كمّ هائل من المعلومات". بل نجده ينقد مع دو ساسي المستشرق دوزى Dozy ويصلح ما وقعا فيه من خطأ في فهم عبارة عربية استعملها العلماء العرب، ومنهم ابن البيطار،

(1) ابن سيرابيون الصغير صاحب كتاب "الأدوية البسيطة" حوالي القرن الثاني عشر وترجم إلى اللاتينية في القرن 13.

كلّما وصفوا نبتة مّا، وهي عبارة "ما هو"، "ما هي" التي ليست للاستفهام؛ إذ قال فيها دو ساسي: "عبارة قليلة الاستعمال كثيرة الفعل"، فقارن لوكلير بين الكتب الأصول: ديسقوريدس المترجم إلى العربية وديسقوريدس باليونانية فاستنتج معناها وتبيّن أن استعمالها على عكس ما ادّعى دو ساسي كثير جدًّا في ترجمة ديسقوريدس. وهي تستعمل كلّما تعلّق الأمر بالتعبير عن حالة ضعيفة أو صفة قليلة وقدّم الأمثلة التالية: "ورقه إلى البياض ما هو"، أي يميل إلى البياض Whitish/ blanchâtre". "له أصل إلى العرض ما هو"، أي قليل العرض not much /un peu large wide". "أجودها ما كان إلى الحُمرة ماهي" أي فيه حمرة قليلة Reddish/rougeâtre .

فكان نقده لهما نقدًا موضوعيًا موثّقًا بالكتب الأصول لكنّه حافظ فيه على التقدير لهما. إلّا أنّ نقده لغيرهما من المترجمين قد يبلغ حدّ الإدانة بالقصور والجهل والاعتداء على الحضارة العربية إذ يقول: "فحتّى من كان متحاملاً على العرب اعترف بما أدخله المترجمون على أعمالهم من الضّيم". ويدعم كلامه بأمثلة واردة في ترجمته لكتاب الجراحة للزهراوي هي أدلة دامغة على كلامه، إذ يقول: "من ذلك بدل مقدح أو إبرة القدح كتبوا "مقدار" بالميم التاجيّة Magdar فظنّ بيريل Peyrille أنها اسم بلد لا إبرة قدح". كذلك ترجمة "الصدغ" بـــ"الصدر" إلخ. وَلئن

اعترف بدور الكتابة العربية في وقوع المترجمين في الخطأ؛ فإنه اعتبر أنّ ذلك ليس بالحجّة الكافية في رأيه للوقوع في خطأ تحريف أسماء الأطباء العرب، ولا في ما أدخلوه من أشكال غير مقبولة على صور الأدوات الطبيّة إذ لا يمكن تفسير ذلك إلا بالجهل لا غير. وكما نقد لوكلير المترجمين الغربيين الذين خصّص لهم الكتاب الثامن من مؤلّفه، وهو كتاب هامّ بالنسبة إلى العرب للاطّلاع المفصّل على كيفية انتقال العلوم العربية إلى الغرب لمعرفة ناقليها المميزين منهم والمتوسّطين، المعترفين بقيمة الإضافة العربية والجاحدين لها؛ فإنّنا نجده ينقد ما وقع في نهضة مصر في القرن التّاسع عشر تحت حكم محمد علي[1]، وبالذات في ترجمة الطبّ، إذ لاحظ أنّ المصريين المكلّفين بالترجمة من الفرنسية أو الإنجليزية يجهلون ما في تراثهم من كنوز كان يمكنهم استغلالها وإحياؤها بدل ما ذهبوا إليه من ابتكارات غير موفّقة. وهو في رأيه هذا محقّ وله خبرة بما أنّه قام بعملية التّرجمة للمُصطلحات الطبيّة والصيدلية العربية إلى الفرنسية انطلاقًا من تلك المصطلحات التي كانت في محلّها وتؤدى ما يُطلب منها على أحسن وجه.

(1) محمّد علي (1769-1849) مؤسّس السلالة الخديوية، عيّن واليا على مصر 1805. انتصر على الجيوش البريطانية 1807، قضى على المماليك 1811 وفتح السودان 1821-1823، عمل على النهوض بالبلاد وتنميتها وتطويرها علميًّا وثقافيًّا.

والدّليل على صدق كلامه هو ترجمة بعض المصطلحات الحديثة ترجمات كان يمكن أن نجد مقابلها في العربية من ذلك مثلا: Les végétations adénoïdes/Adenoids وهي لحمات تكون في الحلق تحت اللحي اصطلح عليها العرب بكلمة "نغانغ" لكنّ المترجمين الجاهلين بالمصطلح العربي ترجموها بـ"ناميات شبغديّة".

ويبدو أنّ لوكلير بدأ في إعداد جزء ثالث يلحقه بكتاب "تاريخ الطبّ عند العرب" كما ذكر أحد أصدقائه[1] يكون للقرن التّاسع عشر الذي صار العرب فيه ينقلون عن الحضارة الغربية، ولعلّه كان يمكن أن يساعد به المترجمين العرب أيّما مساعدة بالإضافة إلى المعجم المزدوج اللّغة الذي ذكر أنّه بصدد تجميع مفرداته إلّا أنّه توفي قبل استكماله ونشره.

(1) انظر رسالة فكتور لوري Victor Loret في الفصل الثالث.

ثالثًا ـ مقتطفات من كتاباته

1. كتاب تاريخ الطبّ العربي[1]:

«أنهينا ترجمة "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار منذ بضع سنوات خلون، وأردنا استكمالها بالسيرة الذاتية لمائة من الأطبّاء المذكورين في الكتاب. كان العمل على وشك الانتهاء حين عنّت لنا فكرة توسيعه إلى المدرسة الطبية العربية كلّها. إلاّ أنّنا نوينا إضافة المزيد من الملاحظات، وحين قرّرنا كتابة التّاريخ الكامل للطبّ العربي بعرض أصوله وطبيعته ومؤسساته وتطوّره وانحطاطه، وذلك بالمزج بين رؤى تجمع شيئًا فشيئًا بين سلسلة السير الذاتية والأحداث، صَار العمل جديدا كلّ الجدّة، من أجله وجب البدءُ بلا شك بعملية إعداد أوليّة تقتضي بحوثًا أوسع تأخذنا إلى نظام جديد للأفكار. وبالرّغم من صعوبة ذلك، تجرّأنا على الشروع فيه، تسندنا الفكرة بأنّ هناك ثغرة في تاريخنا الفرنسي لا بدّ من ملئها لأنّه بقي إلى الآن رهينة البحوث الأجنبية. ففي تاريخ العلوم تعدّ المرحلة العربية هامّة بقدر جهلنا لها بالرغم من كونها غنية جدًّا بالوثائق المعروفة اليوم. ما يميّز المرحلة العربيّة، هي الطرافة الكبيرة لبداياتها فعند مختلف الشعوب التي احتلّت الصدارة بعضها إثر بعض فإنّ نموّ العلوم وتطوّرها عندها متماثل يتّبع تقريبًا نفس القوانين. أمّا بالنسبة إلى العرب فلم يكن هذا شأنهم إذ تفردهم بحدسهم للعلوم هو

(1) توطئة الكتاب، المجلّد الأول.

حدث فريد في التاريخ. عاش في الجزيرة العربية تحت الخيمة والسّقف شعب من الرّعاة والتجار يحميه البحر والصحراء، مشغوف بالحرية وبالحرب والمغامرات، بالفصاحة والشّعر، شعب ذكيّ، ولكنّه الذكاء الفطري الذي لا يعرف التّحليل، فهو معتدّ بذاكرته وأشعاره وأيّامه المشهودة وبأنسابه. ولم يتعلّم الكتابة إلّا في وقت متأخّر، ووفّرت له علاقاته مع فارس بعض المفاهيم العامّة عن الطبّ. وجاءت ثورة فجئيّة حوّلت مسار أقداره وفتحت لنشاطه مجالات شاسعة. كان العرب من عبدة الأوثان، حوّلهم محمّد إلى الإيمان بإله واحد وأعطاهم عنه أنقى الصّفات وأرقاها، وفعل أكثر من ذلك إذ كوّن من شعب يعيش في عزلة، إلى ذلك الوقت، عن كلّ الثورات الخارجيّة جيشًا من حديثي الإيمان المتحمّسين انطلق لغزو العالم. ولم ينقض إلا قرن واحد بعد وفاة محمّد حتّى صارت حدود الجزيرة العربية من المحيط الأطلسي إلى الهند. ماذا كانت نتائج ذلك الغزو الجديد لشعب متعصّب [لدينه] بعد كلّ تلك الغزوات الهمجيّة التي اقتسمت أنقاض العالم الرّوماني وطمست الأنوار والحضارة التي بقيت موجودة، لكنّها ضعيفة ومتهالكة في بيزنطة المرتعبة؟ هل ستحدث صدمة التعصّب والتوحّش المحدقة كارثة أخرى أقوى تأثيرًا من الأولى؟ هل يمكن أن نفترض أن العلم اليوناني قد فقد من يرثه، هل سيصير تركة لهؤلاء المؤمنين الجدد؟ وحدثت المعجزة. فهذا الشعب الذي جعله التعصّب الديني يغزو نصف العالم، ما فتئ أن اتّخذ من المسيحيين المغلوبين معلّمين له.

وجعل يتمثّل علومهم بحماسة وبسرعة على قدر كبير من الرّوعة. وقد أظهر استعدادات تبدو غريبة عن عرقه العربيّ سرعان ما تجاوزها. وطوال خمسة أو ستة قرون حمل هذا الشعب مشعل الأنوار والحضارة. أزعجته الهجمات طيلة قرنين من تعصّب آخر قادم من الغرب، أمدّ خصومه المتوحّشين بالخدمات التي تلقّاها من مسيحيِّي الشرق، أمدّهم بالعلوم التي تركوا منبعها ينصبّ عندهم. في النّصف الثاني من القرون الوسطى نهل الغرب من العلوم العربيّة، وعندما جاء عصر النهضة ترك الإعجابُ مكانه للجُحود والتّنكّر والاستنقاص».

القرن الثاني عشر[1] :

افتُتح القرن الثّاني عشر بالحروب الصّليبيّة، تلك الحروب التعيسة التي سمّاها ميشو Michaud[2] "الهذيان الدّيني". جاءت إلى الشرق بالفوضى والخراب. وكان لها بالضرورة التأثير المؤسّف على الحراك العلمي. وباعتبارنا مؤرّخًا للعلوم بالشرق، أي النشاط الإنساني فيما يَتصّف به من أرقى ما يكون من النّبل والرّفعة، علينا بالطبع، في هذا الصراع بين التوحّش والحضارة، أن نُعبّر لهذه الأخيرة عن كلّ تعاطفنا. إنّ الحروب الدّينيّة هي من بين كلّ

(1) المجلّد الثّاني، الكتاب الخامس.

(2) جوزاف ميشو (1767-1839)، كاتب ومؤرخ وصحافي من بين كتبه تاريخ الحروب الصليبيّة، 7 أجزاء .

الحروب الأكثر ضراوة وقسوة. وسنرى كم أنّ الثّقافة الفكرية تأتي بالاعتدال في الصّراع وترفض الإفراط في التعصّب.

تكلّمنا العديد من المرّات عن تسامح العرب فيما يتعلّق بالدّين وذكرنا سبب ذلك: تعليمهم العلمي كان بواسطة المسيحيين، فاعترف لهم العرب بالجميل اعترافًا دائمًا ولم تتحوّل الثقة بينهما حتى في عهد الحروب الصّليبيّة.

من ضمن خمسة عشر طبيبًا في خدمة صلاح الدّين ممّن أسماؤهم معروفة لدينا؛ الثلثان منهم كانوا يهودًا أو مسيحيين، وفي تلك الفترة نفسها سُمّي ببغداد طبيب مسيحيّ رئيسًا للأطبّاء وكان له بهذه الرّتبة أن يراقب المهنة ويمتحن المترشّحين لها، بالرغم من أنّ عدم التسامح في الشرق كان هو حجّة التدخّل الصّليبيّ. ولو تفحّصنا الأحداث لتبيّن لنا أنّ ذلك لم يكن إلاّ حادثًا [معزولاً] لا ينفي ما قلناه. فحجاج الأرض المقدّسة تعرّضوا إلى سوء المعاملة الأخطر وكانت من فعل أخرق. إذ خليفة مصر الحاكم[1] لا يجب أن تحتسب أفعاله على المسلمين. المعاملات الأخرى يتحمّلها عرق آخر أجنبي، هم الأتراك أسياد فلسطين لمدّة بعد فصلها عن

(1) الخليفة الفاطمي السادس بمصر (996-1021) هو المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله. فضلا عما سنه من أوامر تخصّ المسيحيين واليهود وأهل السنة أمر عام 1009 بهدم كنيسة القيامة من أجل ما يُسمّى بنزول النار المقدّسة التي اعتبرها خدعة الكهنة للناس وكان ذلك الحدث شرارة الحروب الصّليبية. وقد وصف بالمجنون و"نيرون الإسلام".

امبراطورية ملك شاه[1]. وهو أيضًا عمل خاصّ. ومع ذلك فإنّ فريقًا من سبعمائة حاجّ تمت حمايتهم في تلك الفترة من قِبَل السلطة الإسلامية فسُمح لهم بالدّخول على نحو مشهود إلى بيت المقدس. نلاحظ إذن أنّ الإسلام ليس هو السبب قطعًا، ولكنّ السّبب الحقيقي هم المسيطرون آنذاك على فلسطين من ذوى المصائر المتأرجحة آنذاك في مدار مخصُوص. في ذلك العهد كان العرب في خضمّ الثقافة الفكرية. هذا الجنس الذكي الذي هدهد الشعر شبابه وصل إلى سنّ النضج ولم يتوقّف الرصيد العلمي الذي أخذه من اليونان عن النموّ عنده حتّى عندما خرجت السلطة من يده وصارت في أيادٍ أجنبية. فنماء العلوم، وليس أقلّ منها الآداب، حافظ على روح التسامح عند العرب وعلى صفات الكرم التي هي خاصية الحضارة. كان الأمر آنذاك مختلفًا في أوروبا حيث خيَّم الجهل والتعصّب والشّراسة على مدى قرون، فكان عهد القرون القاسية. نحن نعلم كيف بدأت الحروب الصّليبيّة باللّاتسامح والتعصّب. عصابات من مئات الآلاف من المغامرين خرّبت فرنسا قبل أن تذهب إلى آسيا لتنصهر فيها. فكتائب قودفروي دي بويون Godefroy de Bouillon[2]

(1) ملك شاه ثالث سلاطين الدّولة السلجوقية من أحسن الملوك سيرة، يلقب بالسلطان العادل. حكم منطقة واسعة جدًّا فكان الازدهار على عهده في كلّ مظاهر الحضارة، توفي 485هـ/1092م.

(2) قودفروي (1058-1100)، شارك في الحملة الصليبية الأولى وشارك في حصار القدس وأصبح أول ملك على مملكة بيت المقدس مكتفيًا بلقب حامي القبر المقدس.

بعد الفظائع التي ارتكبتها في أنطاكيا، اقترفت أفظع منها عند الدّخول إلى القدس، سبعون ألف يهودي أو مسلم قُتلوا، وكانت الخيول تمشي في الدم البالغ مستوى أعنّتها كما روى المؤرّخون. بعد ثمانين سنة استرجع القدس صلاح الدّين فعفا وهو المنتصر، رغم قَسَمِه بعد رفض طلب الاستسلام الأوّل، على المهزومين، وأطلق سراح أكبر عدد منهم، ودفع أخوه الملك العادل فدية ألفي سجين. تلك هي ثمار الحضارة وقد رأينا ثمار التوحّش.

تحدثنا عن نتائج الحروب الصّليبية، لكن توجد واحدة منها لم نذكرها، وهي أنّ الفرنج نقُص توحّشهم عند الاتّصال بالعرب؛ فالحروب الصّليبيّة المتأخّرة لم يعد لها توحّش الأولى. ومن المحزن أنّ الطبع عاد فيما بعد على مسرح آخر. فشُنّت الحربُ ضدّ أهل البدع واستُعمل الحطب للإعدام حرقًا وشنقًا. وككلّ الدّيانات ثار الإسلام للحفاظ على سلامة عقيدته لكنّه لم يحرق إلاّ الكتب فحدث شيء من هذا القبيل في بغداد. يا لها من صدفة عجيبة! إذ بينما كان الإفرنج الجهلة المتوحّشون يحملون الخراب إلى الشرق، كان العرب يصبون ملء أيديهم كنوز علومهم على الغرب. واندلعت حرب من نوع آخر، دامت أكثر من قرن اتّجهت صوب إسبانيا[1]، وكـان رئيس أساقفـة طليطلة ريموند Raimond الفرنسيّ المولد أوّل دعاتها؛ فذهب أدلار دي باث Adélard de Bath،

(1) أي الأندلس.

وجيرار دي كريمون Gérard de Crémone، وميشال سكوت Michael Scot إلخ... يطلبون من مسلمي إسبانيا العلم الذي يفتقده المسيحيّون. قضى جيرار قرابة نصف القرن بطليطلة لنقل ما تركهُ المسلمون من علوم؛ فعرفنا له أكثر من سبعين ترجمة لكتب في الفلسفة، وفي الرّياضيات، وعلم الفلك، وكتب الطبّ، التي من ضمنها كتاب القانون الضخم لابن سينا. وكانت أيضًا ترجمة بطرس المبجّل Pierre le Vénérable[1] للقرآن في طليطلة حتّى يتسنّى له دحضه عن دراية. فما بدأه قسطنطين الإفريقي اكتمل مع جيرار ومن جاء بعده. لم تستمتع أوروبا بالعلم العربي فحسب؛ بل اكتسبت معرفة أوسع وأعمق بعلم القدامى. هكذا دفع المسلمون لمسيحيي الغرب مقابل ما تحصّلُوا عليه قديمًا من خدمات مسيحيي الشرق. انخفض الحراك العلمي قليلاً بالمشرق طوال القرن الثاني عشر على الأقلّ من حيث أنّنا لم نجد من تميّز غير فخر الدّين الرّازي[2]. وكتعويض، أنتجت إسبانيا تشكيلة غنية من العلماء المتميّزين؛ فالقرن الثاني عشر هو القرن العلمي العظيم لإسبانيا المسلمة.

(1) بطرس المبجّل (نحو 1092-1156م): هو راهب ولاهوتي فرنسي، رئيس دير كلوني في جنوب فرنسا. شكل بطرس فريق ترجمة لنقل أعمال من العربية إلى اللاتينية، من أهمّ ما ترجمه هذا الفريق القرآن وتعتبر أول ترجمة غربية للقرآن.

(2) فخر الدين الرّازي: ولد في الريّ حوالي 1150م وتوفي حوالي 1210م. هو إمام مفسر فقيه أصولي، عالم موسوعي امتدت بحوثه ودراساته ومؤلفاته من العلوم الإنسانية اللغوية والعقلية إلى العلوم البحتة في: الفيزياء والرياضيات والطب والفلك.

هكذا حدث التّوازن في المدرسة العربية حتّى إنّ القرن الثاني عشر فيه من الأسماء الكبرى من عددهم يفوق ما وُجد في القرون السّابقة، ولا بدّ أن نضيف إلى رصيده المؤسّسات التي لم تنشأ إلاّ في نهايته والتي لم تظهر ثمارها إلاّ في القرن الموالي. نُريد أن نقول: المدارس والمستشفيات التي أُنشئت في دمشق وفي القاهرة من قبل نور الدّين[1] وصلاح الدّين[2].

القرن الثالث عشر[3] :

كان القرن الثالث عشر فترة الرفعة والانحطاط والآمال والخيبات. فبقدر ما كانت بِدايته مزدهرة كانت نهايته موسومة بالاضطراب والقساوة. انتقل صولجان الإسلام من أيدي العباسيين إلى عائلة صلاح الدّين فعَوّضت دمشقُ بغدادَ. والمؤسّسات التي أُنشئت في القرن السابق أتت أكلها في القاهرة ودمشق. امتلأت المستشفيات والمدارس بالتلاميذ حيث كان العديد من الأساتذة يدرّسون الطبّ. كان العلماء محميين ومكرّمين في كلّ مكان لـمّا

(1) الملكُ العـادلُ أبو القاسـمِ نور الدين محمود بن عماد الدِّين زَنْكِي (1118-1174م)، تميَّز عهده بالعدل وتثبيت المذهب السُنّي في بلاد الشام ومصر، كما قام بنشر التعليم والصحة في إماراته، ويعدّه البعض سادس الخلفاء الراشدين.

(2) صلاح الدين الأيوبي (1138-1193م)، قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحّدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية.

(3) المجلّد الثّاني، مقدمة الكتاب السادس.

جاء الغزو المغولي لينضمّ إلى الصّليبيين. بداية من ذلك الوقت انخرم التوازن في آسيا، وحُرِم العلمُ من الأمن الذي هو شرط من شروط وجوده وتواصله وأصابه فشل لم ينهض بعده، منذئذ لم تشتعل النار المقدّسة إلا عند بعض الأذهان المميّزة. فلئن كان القرن الثاني عشر مسك الختام في الإبداع في إسبانيا؛ فكذلك الشأن بالنسبة إلى القرن الثالث عشر بالمشرق.

غير أنّ القرن الثالث عشر -في مجمله- ليس أقلّ باعتباره فترة مثمرة، فإلى السنوات الأخيرة منه رأينا بعض الرّجال المرموقين قائمين وقد تجاوزوا بكلّ شجاعة محنًا صعبة. لم نر في الحقيقة رجالاً من مستوى رجال القرون السّابقة، ولكن رأينا صفّا مرصوصا من الرّجال المرموقين في شتّى فروع المعارف الإنسانية؛ فقد ارتفع المستوى العلمي. كذلك كان المسار الذي اتخذه العلم والذّي لم يتأخّر المتوحّشون عن التأثّر به.

حين تجاوز المتوحّشون سكرة الصراع واتّخذوا لهم جذورًا في البلدان المحتلّة، استدعوا العلماء كما لو أنّهم أرادوا أن ينسى الناس الكوارث التي حلّت بالعلوم في بغداد. فالعائلة المالكة المغولية استقرّت بفارس، وأسندت إدارة المدارس وحكم الدّولة إلى الرجلين الأكثر تميّزًا في ذلك العصر: نصير الدّين الطوسي[1]

(1) نصير الدّين الطوسي (1201-1274)، عالم فلكي وأحيائي وكيميائي ورياضياتي وفيلسوف وطبيب وفيزيائي ومتكلّم.

ورشيد الدّين بن عماد الدّولة[1]، في حين عاد بعض المغول إلى الصين يرافقهم علماء عرب[2]. وتميّز القرن الثالث عشر من القرون الأخرى بثقافة أكثر توسّعًا وجدّيةً لفرعين من الطبّ: طبّ العيون وعلم النبات الطبيّ. وتلك الأعمال اتّخذت أساسًا لها يقوم على الملاحظة والتجربة، فإلى ذلك العصر بقيت العلوم الطبيعية متصّلة اتصالاً وثيقًا بعلوم اليونان. أمّا في القرن الثالث عشر فقد رأينا عشّابين يسافرون لدراسة الطبيعة مباشرة، كذا كان شأن أبي العباس النّباتي[3] ورشيد الدّين الصوري[4]، وأيضًا ابن البيطار الذي تجاوزهما بالجمع بين سعة الإطلاع والدراسة الشخصية. أمّا مقالات طبّ العيون فإنّها لم تكن أبدًا بمثل ذلك العدد وبتلك الأهمية. ثمّ إنّ المستشفيات كان لها قسم خاصّ بطب العيون. ولو ألقينا نظرة على مختلف البلدان الإسلامية فسنرى أنّ التقاليد العلمية بقيت حيّة بالرغم من مآسي الزمن.

---

(1) رشيد الدين فضل الله الهمذاني المعروف بـرشيد الدين طبيب (1247-1318)، مؤرخ وطبيب وعالم فارسي من أصل يهودي اعتنق الإسلام وكتب في تاريخ المغول كتاب جامع التواريخ باللغة الفارسية.

(2) "من جهة أخرى فإنّ الغزو المغولي وما أحدثه من المهمّات والأسفار هو ما جعل أوروبا تعرف الشرق الأقصى" (لوسيان لوكلير).

(3) أبو العباس النّباتي المعروف بابن الرومية، ويشتهر بالعشاب ولد في مدينة إشبيلية (1166-1239م) فقيه، وحافظ، ومحدث، وشاعر، وعارف بالعشب والنبات.

(4) رشيد الدين الصوري (1177-1241م) كان من علماء القرن السادس الهجري، وله باع كبير في علم الوصف والحصر النباتي.

قلنا سابقًا إنّ المغول الّذين استقرّوا بفارس آمنوا بالعلم، بل فعلوا أكثر من ذلك إذ آمنوا بالإسلام، وكان ذلك تطوّرًا لهم يعود الفضل فيه نسبيًّا إلى طبيب، هو قطب الدّين الشيرازي[1] أحد تلاميذ فخر الدين الرّازي. في الآن ذاته كان العلماء المتخرجون من تلك المدرسة يقتسمون أعمال نصير الدّين الطوسي الفلكية، وكُلّف رشيد الدّين -وهو طبيب ومؤرّخ أيضًا- بمهام وزير لمدة طويلة، ونجد أخيرًا كتب القزويني[2] وأعماله في علوم الكون والجغرافيا والتاريخ الطبيعي ممّا جعله يُسمَّى بلين العرب. في العراق انطفأت الشعلة تمامًا، وكذلك انتهت العلوم ببغداد. في مطلع القرن الثالث عشر بقيت محافظة على سمعتها القديمة محافظة متواضعة. وحين جاء المغول وقصدوها بضربة قاصمة، هي أشدّ ضرباتهم، أُلغيت المؤسّسات وخُرّبت المباني وصارت المكتبات فريسة للحريق. بل صار العدد الهائل من الكتب الذي تحتوى عليه، إن لم يطله اللّهب، قنطرة على نهر دجلة الذي اصطبغت مياهه بلون الحبر. أمّا سوريا، وكانت ساحة للقتال

(1) قطب الدّين الشيرازي (1236–1311م)، هو عالم وشاعر فارسي عاش في القرن الثالث عشر. كان له دور كبير في علم الفلك والرياضيات والطب والفيزياء ونظرية الموسيقى والفلسفة والصوفية.

(2) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (1203-1283م)، عالم، ألّف الكثير من الكتب في مجالات الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وله نظريات في علم الرصد الجوّي، كما شغف بالنبات والحيوان والطبيعة والفلك والجيولوجيا.

اختلط فيها الصّليبيون بالمصريين وبالمغول، فلم تكن قطُّ على مثل ذلك القدر من الازدهار والخصوبة إلّا في قرن الاضطرابات ذاك. سادت الأسماء العربية بين العلماء لكن إلى جانبهم رأينا أسماء مسيحية ويهودية، اقتسموا معهم ثقة الحكام وتقديراتهم. طوال كامل القرن أمسكت دمشق بصولجان العلم. فقد واصل الأمراء الأيوبيون تقاليد نور الدّين وصلاح الدّين الّذَيْن لم يكونا يبحثان عن الأطبّاء لإلحاقهم بخدمتهما فحسب ولكنّهما ميّزا خمسة منهم برتبة وزير.

نعرف أسماء العديد منهم ممّن سُمّوا رؤساء أطبّاء بسوريا، وعددًا آخر أكبر أُلحقوا بمستشفيات دمشق حيث كانوا يدرّسون الطبّ.

أحد هؤلاء الأطبّاء وهب منزله لإنشاء مدرسة جديدة.

أبو الفرج، مؤرّخ السلالات الملكية، وابن أبي أصيبعة مؤرخ الطبّ بدآ في دمشق دراستهما للطبّ كما أقام بها عبد اللّطيف. كان لمستشفيات دمشق أقسام لطبّ العيون الذي اعتُني بِهِ بِصفة خاصّة. كذلك الشأن بالنسبة إلى علم النبات. فقد كان ابن الصوري يقوم بالتعشيب في لبنان مصحوبًا برسام. أمّا ابن البيطار فقد سكن مدّة من الزمان بدمشق وجعل منها منطلقا لجولاته. أقام جمال الدّين مؤلف كتاب الحكماء في حلب، وهو الواسع الثقافة الأكبر وأعظم عاشق للكتب عرفه العرب.

ولنذكر أيضًا أسماء بعض الأطباء المرموقين: رضي الدّين الرحبي[1]، والطبيب المتمرّس يعقوب بن صقلان[2]، وهو مسيحي عميق المعرفة بطب جالينوس، وابن الدخوار[3] الذي كان يقتسم وقته بين المدارس والمستشفيات، واليهودي عمران الإسرائيلي[4] عالم وأستاذ ومحبّ للكتب.

قرون الانحطاط[5] :

بدأت عصور الانحطاط التام في القرن الرابع عشر. كان الشرق في القرن الثالث عشر شديد الاضطراب، وكذلك صار من جديد في القرن الرابع عشر؛ إذ إلى غزوة جنكيز خان[6]

(1) رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، (534-631هـ) من الأكابر في صناعة الطب، والمتعينين من أهلها، وله القدر والاشتهار والذكر الشائع عند الخواص والعوام، ولم يزل مبجّلاً عند الملوك وغيرهم.

(2) يعقوب بن صقلان الطبيب، النصراني المقدسي، توفي سنة 1228م، كان يباشر شؤون البيمارستان.

(3) عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار (1170- 1230م) أسّس في دمشق المدرسة الدخوارية وهو واحد من ألمع أطباء العيون التي يُطلق على المشتغل بها "الكحّال" في ذلك العصر وقد عيّن مديرًا لأهمّ مستشفى وأعظمه في دمشق وقتها "البيمارستان النوري الكبير".

(4) عمران الإسرائيلي، هو الحكيم أوحد الدين عمران بن صدقة، (561-637 هـ)، اشتغل على الشيخ رضي الدين الرحبي بصناعة الطب وتميز فيه.

(5) المجلّد الثّاني، الكتاب السابع، المقدمة.

(6) جنكيز خان (1165-1227م)، هو مؤسس وإمبراطور الإمبراطورية المغولية التي اعتبرت أضخم إمبراطورية في التاريخ، وقد ارتكب مجازر كبيرة بحق المسلمين.

انضافت غزوة تيمورلنك، واقتسمت عائلات مالكة جديدة دول العائلات المالكة المهزومة. العهود التي من هذا النوع، هي بالضرورة كارثة على العلم. فالمكتبات نُهبت، والمؤسسات حُلّت، والعلماء تذبذبوا وما عادوا يدرسون. لم يكن التفكير آنذاك إلاّ في الحفاظ على النفس ولم يعد يُحسب للمستقبل أي حساب. ولئن بقي ظهور بعض الأفراد الموهوبين الذين خدمتهم الظروف وارداً، فإنّهم لا يمثلون مدرسة ثمّ إنّه انقطعت الصّلة مع الماضي العلمي.

ومن المعلوم أنّ غزوة تيمورلنك كانت أشدّ فظاعة من غزوة جنكيز خان فلم تبق بغداد بعد ذلك إلّا مجرّد حاضرة إقليم. تحدّث ابن بطوطة[1] عن المدرسة الشهيرة التي أسّسها نظام الملك[2]. لكن إن كان المَعْلَم مازال قائما فإنّ الأساتذة والتلاميذ غائبون. أمّا مصر فمازالت لمدّة محدودة، مركزاً علمياً. فأحوالها الجغرافية الخاصّة جدًّا وانعزالها اضطرّها إلى تنمية الموروث، وجعلها، في نفس الوقت، أكثر أهلية للدّفاع أو لاستعادة

(1) محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (1304-1377م بطنجة) هو رحالة ومؤرخ وقاض أمازيغي من قبيلة لواتة، لقب بأمير الرحالين المسلمين. واتّصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم -وكان ينظم الشعر- واستعان بهباتهم على أسفاره، والكنية "ابن بطّوطة" هي كنية أطلقها الفَرَنجة عليه.

(2) نظام الملك وزير عهد إليه بالوصاية على ملكشاه (1072-1092) ثمّ تفرّد بالحكم. أنشأ نظامية نيسابور 1065- أقرّ الأمن في العراق وفارس، قتله الحشاشون.

استقلالها. فالغزاة أنفسهم مجبرون على أن يَقرأوا لها ولماضيها المجيد حسابًا، فلم يعد للعلوم والآداب من ملجأ آمن إلاّ في مصر وسوريا المتحدتين زمنًا طويلاً تحت نفس الصّولجان. إلاّ أنّنا لاحظنا أنّ الازدهار مازال موجودًا في سمرقند. هذا كله يدلّ كم أنّ العلم يحتاج إلى الاستقرار لينمو بما أنّنا رأيناه دائم الانتعاش في مملكة غرناطة الصغيرة تلك المملكة التي لم تنقطع مساحتها عن التقلّص، لكن لم ينتقص استقلالها وحافظت عليه منتجة دائمًا الأدباء والعلماء. هناك فقط بقي العرب يحكمون.

في أثناء القرن الرابع عشر يمكننا تسجيل أربعين اسمًا، نصفهم ينتمون إلى الأندلس، لكن من هذه الأسماء لا يوجد اسم واحد لطبيب مشهور. لم نعد نجد في الإنتاج العلمي شيئًا جديدًا، بل صَارَ تجميعًا أو مقتطفات أو شروحًا فقط.

والكتاب الوحيد الملحوظ أكثر من غيره لهذا العصر، هو مقالــة مجهولة المؤلف عن داء المفاصل موجودة بباريس وأُلّفت في سوريا. ونذكر مؤلّفًا جديرًا بالاهتمام بالرغم من كونه إعادة صياغة لابن القطبي المعروف بالجويني[1] أيضًا، لا شكّ لأنّه كــان أصيـل جوين وهي منطقة بفارس. نذكر أيضًا الشفاء لِخضر بن علي[2].

(1) هنا نجد لوكلير لا يدقق بذكر المؤلف وتحديد أيّ جويني يقصد.

(2) حاجي باشا خضر بن علي الأيديني المتوفى نحو 816هـ، له كتاب "شفاء الأسقام ودواء الآلام".

من أطباء الأندلس نذكر رجلاً مشهوراً، لكنه كان على الأصحّ رجل سياسة ومؤرّخًا أكثر منه طبيبًا، نقصد لسان الدّين ابن الخطيب، الذي اهتمّ كذلك بالطبّ ومارسه[1]. والمكتبة الوطنية تمتلك كتابًا له يدلّ على فكر جيّد. هذا، والعلوم التابعة للطبّ كانت أحسن حظًّا، فتاريخ الحيوان للدميري[2] ينتمي إلى هذه الفترة، وبالرغم من أن هذا الكتاب هو من تأليف أديب لا عالم طبيعة، فإنّه ليس أقلّ قيمة لما فيه من كم وافر للمعلومات. ابن دريهم[3] كتب في نفس

(1) محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني الخطيب الشهير لسان الدين ابن الخطيب ((غرناطة)، 1313م– (المغرب)، 1374م) كان علامة أندلسيا فكان شاعرًا وكاتبًا وفقيهًا مالكيًّا ومؤرخًا وفيلسوفًا وطبيبًا وسياسيًّا من الأندلس. اِشتهر بتأليف قصيدة "جادك الغيث" وغيرها من القصائد والمؤلفات. قَضّى معظم حياته في غرناطة وعرف بلقب ذي الوزارتين: الأدب والسيف.

(2) أبو البقـــاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن على الملقب بالـ "الدميري" نظرًا لانتماء أسرته إلى بلدة "دميرة" بشمال مصر (1344 -1405م)، ألف العديد من الكتب في الفقه والحديث وأشهر مؤلفاته كتاب حياة الحيوان الكبرى، ويعتبر هذا الكتاب مزيجًا من العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والحديث ـ وقد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات واقتبس منه العديد من الغربيين.

(3) هو علي بن محمد بن عبد العزيز بن فتوح بن إبراهيم بن أبي بكر، المعروف بابن الدريهم الموصلي التغلبي الشافعي (1312- حوالي 1356م)، عالم تعمية (أي استخراج المعمّى وحل الشفرة) والرياضيات (الحساب والأوفاق وخواص الحروف وحل المترجم والألغاز، وكذلك النجوم وحل التقويم).

الموضوع، وطب الخيل كتب فيه أمير من اليمن. أمّا الكيمياء فإن أبرز ممثليها هو الجلدكي Al-Jaldaki[1]. أبو الفداء كتب في الجغرافيا، وكتب ابن بطوطة رحلته من طنجة إلى الصّين ومن النيجر إلى فولقا Volga[2]. ويوجد رجل لا يمكننا السكوت عنه، ألا وهو ابن خلدون[3] فقد تحدّث في مقدّمة كتابه في كلّ شيء، في الحضارة والعلوم والآداب والفنون وحتّى في الطبّ. وأكثر ما يلفت الانتباه في هذا الكتاب، هو جرأته على كتابته لأنّه لا أقلّ من كونه تاريخًا مقارنًا للحضارة ونوعًا من فلسفة التّاريخ. ومن المؤسف أنّ الحياة المضطربة للكاتب لم تمكّنْه من أن يعمّق دراساته وبقيت عنده مسلّمات وأفكار كثيرة مغلوطة. فقد اعتبر أنّ الفلسفة علم غير مجدٍ وآمن بالسّحر[4]. ومن الأحداث السعيدة لذلك العصر

---

(1) عز الدين الجِلدكي، توفي 1342م، عالم كيمياء، يُعَد من أعظم المؤلّفين. خدم تاريخ الكيمياء في الإسلام إذ دوَّن في مصنَّفاته كثيرًا مما اندثر من كتب سابقيه.

(2) نهر الفولقا أطول أنهار أوروبا وأغزرها. يقع في الجزء الغربي الأوروبي من روسيا، يعد ممرًا مائيًا هامًا للنقل البحري داخل روسيا. يصب النهر في بحر قزوين.

(3) ابن خلدون عبد الرّحمان ولد في تونس 1332 توفي في مصر 1406 مؤرخ وفيلسوف ورجل سياسة، تولى القضاء. مؤسّس علم الاجتماع بمقدّمته لكتابه المتعدد الأجزاء "العبر...".

(4) لم ينتبه لوكلير إلى أنّ ابن خلدون هو مؤسّس "علم الاجتماع" وحكمه عليه متسرّع غير عميق ولعلّه تأثّر بترجمة دو سلان De Slane.

تأسيس المارستان الذي بدأه قلاوون[1] وأنهاه ابنه.

أمّا القرن الخامس عشر فإنه لم ينتج إلا اثني عشر اسمًا لم نعرف من بينهم إلا اسمًا واحدًا معروفًا، هو السيوطي[2]، فضلاً عن كونه لم يكن مختصًّا في الطبّ بل كاتبًا متعدّد الموضوعات. لم تنجب العلوم إلا رجلاً واحدًا ملحوظًا راعيًا لها، هو أُلُغْ بك Ulugh Beg[3]، ثمّ إنّه مارس علم الفلك بنجاح في نفس الوقت.

القرن السادس عشر هو أيضًا أكثر عقمًا. اسم واحد يشدّ المؤرخ، هو اسم داود الأنطاكي، فهو أكثر الأطباء تميّزًا، ظهر في الشرق منذ القرن الثالث عشر. ويمكننا القول إنّ آخر طبيب توقّف عنده عصر الطب العربي نهائيًّا في نفس هذا القرن اسمه ليون الإفريقي، والقرن السابع عشر هو قرن حاجي خليفة[4]. كلاهما يثيران اهتمامنا لكن ليس بنفس القدر.

---

(1) قلاوون سادس المماليك البحريين (1279–1290) انتصر على الجيوش المغولية والأرمنية والإفرنج قرب حمص، احتل سائر الحصون الصليبية (المرقب–الكرك–طرابلس...).

(2) السيوطي (1445–1505) القاهرة، عالم في التفسير والحديث والفقه واللّغة، سافر إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ويقال إن مؤلّفاته زادت عن 500. من كتبه "طبقات الحفاظ" و"طبقات المفسّرين".

(3) أُلُغْ بك (1393–1449) ولد بالسلطانية وتوفّي بسمرقند. ملك تركستان وما وراء النهر، ازدهرت سمرقند في أيّامه. كان شاعرًا ومؤرّخًا وله إلمام بعلم الكلام.

(4) حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله (1608–1658) كاتب تركي له موسوعة "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" نحو 14500 كتاب.

القرن الثامن عشر أهدانا أيضًا اسم طبيب عربي، هو عبد الرّزاق الجزائري. ترجمنا كتابه من أجل الفضول العلمي، ولأنها فرصة لنا لوضع ما ورد في كتابه إزاء الممارسة الحالية للطب بالجزائر، وهو الاسم الأخير الذي أمكننا الاحتفاظ به. أخيرًا نضيف أنّ فارس احتفظت بالتقاليد الطبية. ولن ننهي هذا العرض دون قول كلمة في شأن النّهضة الطبيّة التي تحدث الآن في الشرق وفي مصر بالذّات. وهي شبيهة أيضًا بما حدث في العهد العباسي إذ هذا التغيير يحدث عن طريق التّرجمة. إلاّ أنّه يوجد، كما يبدو لنا، فرقٌ في الطرق المعتمدة: كان على الأطباء المدعوين إلى مصر أن يساعدوا المترجمين المصريين الذين لم يكونوا مهيئين بالقدر الكافي، فالقليل من هذه الترجمات أنجزها الأوروبيون، وعندما قرأنا عددًا من هذه الترجمات بدا لنا أنّ المترجمين المصريين لم يكونوا على معرفة بالطبّ العربي. إذ كان يمكنهم أن يجدوا في الكتب الأصول كميّة كبيرة من المصطلحات التقنيّة التي يمكن الاحتفاظ بها بدل المبالغة في استعمال المبتكر لها.

بل كان يمكنهم أن يجدوا عند العرب معلومات طريفة عن مأتى بعض الأدوية بدل أخذها عن طريق الأوروبيين. وعوض الوقوف عند داود الأنطاكي كان عليهم الرجوع إلى ابن البيطار، فتاريخ المادة الطبية مازال يمكنه حتى يومنا هذا أن ينهل معلومات جيّدة من العرب. في الهند عاد الطبّ العربي إلى الازدهار بإيعاز من الحكم البريطاني الذي اعتمده لسكانه المسلمين وقد كثر

عددهم، لكنهم هناك بالعكس سقطوا في المبالغة. فبدل نشر ترجمات لكتب حديثة عمدوا إلى إحياء القديم فقط. كنّا تحدثنا من قبل عن مختصرات القانون وعن شروحه التي نشرت في كلكوتا. وقد علمنا من السيد قرسيان دي طاسي M. Garcïen de Tassy[1] بنشر القانون لابن سينا سنة 1871 مترجمًا من العربية إلى الهندية، كذلك مقالة في علم الأمراض لمؤلف مجهول، بالإضافة إلى ما سمّاه السيّد دي طاسي بكنز الخوارزمشاه والذي ما هو إلا كتاب الذّخيرة للجرجاني الطبيب الفارسي من القرن الثاني عشر، أهداه إلى أمير خوارزم. حركة علمية مشابهة تحدث في فارس حاليًا...

في الترجمات اللاّتينية[2] :

قمنا بإحصاء الترجمات من العربيّة إلى اللاّتينية، ولم نجد أقلّ من ثلاثمائة ترجمة بعد أن تركنا جانبًا ترجمات المشتغلين بالخيمياء[3]. هذه الكتلة الهائلة من الوثائق الجديدة، انتشرت عبر أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان من

(1) قارسيان دي طاسي (1794– 1878م)، هو مستشرق فرنسي. تولى رئاسة الجمعية الآسياوية الفرنسية لفترة.

(2) المجلّد الثّاني، الكتاب الثامن، المقدمة.

(3) لا يقول chimie أي الكيمياء بل L'alchimie والخيمياء أقرب إلى الشعوذة منها إلى العلم.

شأنها ملء الكثير من الفراغات والإفضاء إلى ازدياد الدّراسات. فلا يجب إذن التعجب من التحمس العلمي في القرن الـ13 حيث ظهر العديد من الرّجال المتميّزين الذين سارعوا إلى استثمار العلوم العربيّة. ماذا كان يحدث لو أنّ جيرار دي كريمون وُلِد قبل قرن وأعطى ترجماته الثمانين إلى أبلار الشهير Abélard[1]. أغلب هذه الترجمات نقلت أعمال أكثر العلماء تميّزًا من بين اليونانيين والعرب: فلاسفة، علماء رياضيات، علماء فلك وأطبّاء. نتحدّث أوّلاً عن اليونانيين في حقل الفلسفة التي سندرج فيها الأعمال المتعلّقة بعلوم الفيزياء والطبيعة، فنجد في البدء أرسطو الماثل في ثلاثين ترجمة. في حقل علوم الرّياضيات والفلك، نرتقي إلى إقليدس Euclide[2]، أرشميدس Archimède[3]، أبولونيوس دي بارج Apollonios de Perga[4]، ثيودوسيوس Théodose[5]،

(1) أبلار، فرنسي (1079–1142م)، عالم لاهوتي مسيحي وفيلسوف أب المدرسة الكلامية جدلي التفكير ومبتدع الفلسفة التصورية المعنويّة.

(2) إقليدس، ولد 300 قبل الميلاد، عالم رياضيات يوناني، يُكنّي بأبي الهندسة.

(3) أرشميدس (287ق.م –212ق.م) هو عالم طبيعة ورياضيات وفيزيائي ومهندس ومخترع وفلكي يوناني.

(4) أبولونيوس دي بارج (262–190ق.م)، فلكي ومهندس وعالم رياضيات يوناني. مشهور بأعماله في مجال القطع المخروطية.

(5) ثيودوسيوس (160ق.م تقريبًا– 100ق.م تقريبًا)، هو فلكي ورياضياتي إغريقي.

منيلاوس Ménélaüs[1]، هبسيكلاس Hypsiclès[2] وبطليموس Ptolémée[3]. والطبّ اليوناني تمثله أربعة كتب لإبقراط و25 كتابًا لجالينوس. فاليونان تمثّله مائة ترجمة متعلّقة بالنخبة من علمائه. أحصينا أيضًا أسماء شهيرة عند العرب. فمن ضمن الفلاسفة نذكر الكندي، قسطا بن لوقا، الفارابي، ابن سينا، الغزالي، ابن رشد وابن جبيرول Avicebron[4]. ونذكر من بين علماء الرّياضيات والفلك: ثابت بن قرّة، أولاد موسى بن شاكر، الخوارزمي، ابن الهيثم، الفرغاني، البتّاني، جابر بن أفلح Jabir Ibn Aflah[5] والبيروني.. إلخ. أخيرًا، ضمن الأطبّاء: سرابيون،

(1) منيلاوس الإسكندري (70-140م)، عالم رياضيات يوناني. ورد اسمه في المصادر العربية:"مانالاوس" و"منالاؤوس" و"ميلاوش". وضع كتابا هاما دعاه "سفيريكا" في هندسة الأجسام الكروية. وقد حُفظ الكتاب عبر الترجمات العربية فقط.

(2) هبسيكلاس (نحو 190-120ق.م) هو فلكي ورياضياتي إغريقي.

(3) كلوديوس بطليموس (حوالي100– حوالي170م) هو رياضياتي وعالم فلك وجغرافيّ ومنجم وشاعر إبيجراما في الأنثولوجيا الإغريقية.

(4) أبو أيوب سليمان بن يحيي بن جبيرول (1021-1058م)، شاعر وفيلسوف يهودي أندلسي.

(5) أبو محمد جابر بن أفلح الإشبيلي (1100-1150م)، فلكي ورياضياتي عربي من الأندلس، ألف تسعة كتب في الفلك وقد ترجمها جيرار دي كريمون إلى اللاتينية وله معادلة تستعمل في حل المثلثات الكروية القائمة سميت معادلة جابر.

ماسويه، الرازي، إسحاق، ابن الجزّار، أبو القاسم الزهراوي، على بن عباس، ابن سينا، ابن رشد.. إلخ.

بالإضافة إلى أن الكثير من العلماء يُعدّون ضمن هؤلاء، وأن الأكثر تميّزًا يمثلون كتلة هائلة من الترجمات. إن قمنا بتوزيع مجموع الترجمات وفق نوع المادة فنجد 90 منها تتعلّق بالفلسفة والفيزياء والعلوم الطبيعيّة، 70 متعلّقة بالرّياضيات وعلم الفلك، 90 للطبّ، و40 لعلم الفلك والكيمياء التي لم نُحْصِ منها إلاّ ما جاء من الرّازي والفارابي وابن سينا. بوجود كلّ هذه الترجمات نستطيع أن نفهم مقدار الحراك الفكري الذي أثاره عمل التّرجمات من العربية إلى اللاّتينية لوضعها على ذمّة العلماء.

لو تحدّثنا عن الترجمات التي مرّت عن طريق العبريّة لم نجد بإحصائنا لها إلاّ عشر ترجمات على 300 ترجمة[1]. أمّا بالنسبة إلى أقلّ من الثلث من الترجمات التي نجهل أسماء مترجميها فإنّ الترجمات التي قدّمنا تاريخها تنتظم في تجمّع طبيعي وترتبط برابط مشترك هو النقص [العلمي] اللاتيني في القرون الوسطى. أمّا التي جاءت بعد ذلك والتي تتواصل في أيّامنا هذه في كلّ اللّغات، فلم يعد لها نفس الهدف، لكنّها مدفوعة بالفضول العلمي. ولم يعد لها إلاّ أهمية تاريخية بينما كانت الترجمات

(1) هذا الإحصاء يدعم هذا الرأي إلا أنّ العملية أشدّ تعقيدا ممّا ذكر لوكلير.

الأولى وسيلة للتقدّم وانتشار العلم العربي وهي مازالت حيّة في الغرب. الترجمات المعاصرة، مهما كانت فائدتها لا تندرج في المخطط الذي رسمناه لِكتابنا.

والآن، لو ألقينا نظرة إلى الماضي وتصفحنا عصرًا يتكوّن من قرون كثيرة حيث كانت ترجمات بغداد هي الأولى، وترجمات طليطلة هي الثانية، سنرى أنّ العرب لعبوا في حوليات التقدّم العلمي دورًا أكثر أهميّة من ذلك الذي يُسندُ إليهم عامّة.

2. مرض الجدري بين الأسطورة والتاريخ[1] :

«مقالة الجدري للرّازي، هي من بين أهمّ الإنتاجات الأصيلة في الطبّ العربي، لا لأنّ هذه الدّراسة الوافية هي عمل طبيب مقتدر، ولكن لأنّها أيضًا أوّل مقالة مكتملة وصلت إلينا عن المادّة المدروسة. فمن المعلوم أنّ الجدري هو مرض حديث نسبيًّا وأنّ اليونان لم يعرفوه. والرأي القائل بعكس هذا، والذي يبدو أنّ الرّازي ذهب إليه بقوله إنّه وجد عند جالينوس بعض علاماته[2]، هو رأي لا يمكن الدّفاع عنه بجدّية. والشهادات الإيجابية التي لا مردّ لها عن الجدري تعيد تاريخه إلى القرن السادس. وأقدم

(1) من مقدمة ترجمة مقالة الرّازي في الجدري والحصبة فيها عرض لفرضيّة طريفة تتصل بتاريخ ظهور هذا المرض.

(2) في الملاحظة رقم 2 التي ذيل بها الترجمة بيّن لوكلير خطأ الرّازي في اعتباره أنّ جالينوس عرف الجدري ووصفه.

الكتب التي وجدنا فيها الإشارة إلى هذا المرض إنّما هو القرآن نفسه. لا شكّ في أنّه لا بدّ من عملية نقدية لاستجلاء المجهول، ولكن كما سنرى، هذه العملية ليس فيها من المجازفة ولا التكلفّ شيء، بالإضافة إلى ذلك لدينا الأسطورة مسنُودة بالتاريخ. هي ذي الظروف التي حدث أثناءها الوباء: حوالي سنة 570م، أراد أمير مسيحي من اليمن، وهو والٍ عليها من قِبَلِ النّجاشي Negus[1] يُسمىّ أبرهة Abraha[2]، خدمة المسيحيّة بأن يجعل من صنعاء، حيث مقرّ إقامته، مكّة أخرى يجعلها مركزًا للحجّ. ومن شأن هذا أن يجعل معتقدات العرب تهتزّ باعتبار أن الحجّ إلى مكّة كان من الطقوس الأساسية لأنّه أُسّس منذ أزمنة بعيدة.

من أجل هذا بنى أبرهة كنيسة بديعة، لكنّ القرشيين الذين كانت حراسة الكعبة من صلاحيّاتهم، منها استمدّوا أهميّتهم وثروتهم، فكّروا في تخريب ذلك المشروع. فاستأجروا رجلاً منهم توصّل إلى أن يكون حارسًا لكنيسة صنعاء. في ليلة احتفال كبير، تسلّل ليلاً داخل المعبد ونجّسه بما أحدثه فيه، ثمّ هرب معلنًا في كلّ مكان عن فعلته. رأى أبرهة من واجبه مسح عار ذاك

(1) النجاشي حاكم الحبشة وملك ملوكها، أي إمبراطورها، فكلمة النجاشي لفظة حبشية، اقترضها العرب.

(2) أبرهة بن الصباح الحبشي ويقال له أيضًا أبرهة الأشرم، هو قائد عسكري من مملكة أكسوم وأعلن نفسه ملكا على مملكة سبأ (اليمن).

التدنيس. فذهب إلى مكّة في جيش حاصرها به وهو يمتطي فيلاً أبيض اسمه محمود حسب المؤرّخين. لكنّ حادثًا غير متوقّع فتك بكتائبه شرّ فتك وأجبره على الهرب. رأى أهل مكّة في هذه الهزيمة عقابا إلهيّا[1]. هكذا روى القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل رقم 105: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾. فالله أرسل إذن على منتهكي الحرمات الحبش، طيوراً أبابيل يحمل كلّ طائر منها ثلاث حصوات: واحدة بالمنقار وواحدة بكلّ رجل، رموهم بها فقتلوهم في الحين باستثناء قائدهم الذي فرّ إلى الحبشة. وهناك، وهو يقصّ الحادثة على رئيسه، جاء آخر عصفور ليرميه بالحجارة فخرّ ميتًا. من البسيط البحث عن عامل طبيعي وراء هذه الخوارق التي تستعملها كلّ الأديان. فقُندلفي Gandolfi مؤلّف "الحوليات الإسلامية" الذي بدأ بتعريف لحياة محمّد هو أفضل من كلّ ما كُتب عنه سابقًا، فكّر في أنّنا يمكن أنّ نتصوّر أنّ إعصارات شديدة العنف أعمت أبصار جيش أبرهة وعصفت بهم. على أنّنا نعتقد مع بعض المستشرقين أنّه من الطبيعي أكثر أن يُرى في تلك الحجارة التي تركت آثارًا "وباء الجدري"، فضلاً عن أنّ هذا التأويل يتفّق

(1) كما رأى بعض المعاصرين في كوفيد-19 Covid عقابا إلهيا واعتبروه جندًا من جنود الله الخفية كالطير الأبابيل!

مع شهادات تاريخيّة. فعام محاصرة مكّة، الذي سمّاه الرواة العرب بعام الفيل، كان هو العام الذي ولد فيه محمّد. لا نعرف التاريخ بالتدقيق رغم أنّ أغلب المؤرخين يجعلونه بين 569م و571م، باستثناء قندولفي الذي جعل تاريخ ولادة محمّد سنة 578 دون تبرير ولا تدعيم. تحدّث ابن دريد[1] والمسعودي[2] عن أوّل ظهور لمرض الجدري عند العرب. ليس لدينا كتاباهما، ولكن لدينا بالصّفحة 8 من "كتيّبات طبيّة" *Des Opuscules médicaux* لريسكه Reiske[3] من النصّ الأصلي أنّ هزيمة جيش أبرهة كانت نتيجة وباء الجدري الذي أنهى صُدْفةً العدوان. وهو أيضًا رأى سبرنجال وهامر Hammer (مذكور عند كزيمرسكي Kasimirski[4]) [...] مهما يكن من أمر فما يبقى لنا هو أنّ أوّل وباء للجدري، كما ذُكر عند المؤرخين، وقع عام الفيل أي حوالي 570م».

ويضيف لوكلير في تعقيب له يقول فيه: "المقدمة التي صدرنا بها مقالة الجدري حاولنا تحديد تاريخ ظهور المرض أوّل مرّة.

---

(1) ابن دريد: أبو بكر محمد الأزدى (837–933) بغداد، له "الجمهرة في اللّغة".

(2) المسعودي علي بن حسين، مؤرّخ وجغرافي عربي له كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" زار عديد البلدان إلى حدود الصين.

(3) يوهان ريسكه (1716– 1774م)، مستشرق ألماني، نشر بالعربية بالاشتراك مع أدلر، "تاريخ أبي الفداء" مع ترجمة إلى اللاتينية.

(4) بيبرشتاين كازيمرسكي (1780–1865م)، مستشرق بولوني. أخذ العربية عن دو ساسي، له معجم: "كتاب اللغتين العربية والفرنسية".

ورأينا مع العديد من المستشرقين في أسطورة الطير الأبابيل وباء الجدري، وهو رأى أقرب إلى التصديق من غيره من الشّهادات التي تحدّد ظهور الجدري عند العرب في تلك السنة نفسها فهم أوّل الشعوب الذين أصابهم هذا الوباء. بعدها اكتشفنا إشارة أخرى إلى بدايات مرض الجدري، إشارة بدا لنا أنّه لم يلاحظها أحد قبلنا، ونظن أنّه من واجبنا إخراجها من النسيان لقربها من عام الفيل الذي لا يفصلها عنه إلاّ ثلاثين سنة، وهو أمر جاء بصفة خاصّة لدعم تخميناتنا. المغامرة التي أطرّت هذه الملاحظة المتعلّقة بالجدري هي مؤثّرة وبطولية، ونرجو أن تسمحوا لنا بذكرها بحذافيرها في هذه المجلّة الطبيّة، فهي صفحة جديرة بمستوى الإلياذة. نقترضها من الكتاب المتميّز للسيّد كوسان برسفال Caussin Perceval[1] "تاريخ العرب قبل الإسلام"[2]، والذي يبدأ بقوله: "كان ذلك سنة 601م [...] والحرث بن مكدم أبو القارعة - وقال بعضهم أبو القرعة - وأخوه ربيعة بن مكدم، قال: وهو **مجدور** يومئذ يُحمل في محفّة..."[3].

---

(1) أرماند بيير كوسان دي برسفال (1795-1871م) مستشرق فرنسي. هو مؤلف كتاب "بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي عصر (النبي) محمد"، ويقع في ثلاثة مجلدات، باريس، 1847.

(2) نفس القصّة أوردها الدّكتور براون وذكر مصدرها وهو كتاب الأغاني (لوسيان لوكلير).

(3) أورد خبر مقتل ربيعة بن مكدم وموقفه البطولي لإنقاذ نساء قبيلته كما رواها برسفال بتصرّف في الخبر الذي ورد في المجلّد الخامس ج14 =

3. ردّ لوكلير على رسالة "موهل" دفاعًا عن منهجه في كتابه المترجم "الجامع لابن البيطار" :

كتب جوليوس مُوهل Julius Mohl[1] رسالة إلى لوكلير من باريس في 28 أوت 1874 يعلمه فيها بتوقف نشر ترجمته لكتاب الجامع لابن البيطار نتيجة تذمر السيد دو سلان De Slane[2] للجنة بسبب ملاحظات لوكلير غير المهذبة إزاء ما طالبه بتغييره، ورفض مواصلة مراجعة العمل. عبّر موهل عن استيائه ممّا حدث، وأكّد مساندته لنشر الكتاب محاولاً المصالحة بين دي سلان ولوكلير، وطلب أن يكون وسيطًا بينهما حتى يبلغ العمل نهايته المأمولة فردّ لوكلير، عليه بهذه الرسالة[3]:

= من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، دار الفكر بيروت، من الصفحة 125 إلى الصفحة 134، حيث اعتمد لوكلير كلمة "مجدور" لتدعيم افتراضاته التّاريخية.

(1) جوليوس مُوهل (1800–1876م)، مستشرق فرنسي من أصل ألماني، أستاذ اللّغة الفارسية بمعهد فرنسا العالي Collège de France.

(2) البارون ويليام ماك قوكين دي سلان (1801–1878م)، مستشرق فرنسيّ من أصل إرلندي. أستاذ اللّغة العربيّة بمعهد اللّغات الشرقية الحيّة، عضو بأكاديميّة النقوش والآداب الجميلة، كان مترجما أساسيّا للجيش الفرنسي بإفريقية، من أعماله ترجمة مقدّمة ابن خلدون والمسالك والممالك للبكري.

(3) وهي رسالة هامّة جدًّا تعبّر عن غضبه الشديد وعن سخريته وتحدّيه واعتزازه بأعماله، ونقده للكثير من المستشرقين المشهورين بإبراز أخطائهم واستعراض منهجه العلميّ وغزارة علمه في كافّة أعماله.

«السيّد موهل، انتظرت رجوعكم لأردّ على رسالتكم. أنا مدين لكم لِمَا تبدونه من اهتمام بعملي، وأعترف بجميلكم لما بذلتموه من جهد في سبيله. غير أنّي أشعر أنّكم تقسون عليّ. أوّلا الملاحظة التي ذكرتموها هي من وحي الخيال. فأنا أجبت على ملاحظة "ما معنى هذا؟" بأنّى أكتب للأطبّاء وأنّ طالبًا من السنة الأولى يفهم ما كتبت: إذ بالفعل، فإنّه في السّنة الأولى يبدأ تعليم الطبّ بعلم النّبات وبالمادّة الطبيّة. فإن بدت ملاحظاتي أحيانًا في شكل واضح وباتّ، فذلك لأجعل السيد دي سلان يفهم جيّدًا، ما نسيه غالبًا، وهو أنّ الطبيب، وخصوصًا الطبيب المختصّ، لا يُرتجل ارتجالاً. وأؤكّد لكم أنّني تعاملت في البداية بالكثير من الاحترام وغالبًا ما أضعت الكثير من الوقت لأستردّ وثائقي الأصلية، والتي لم تكن معي كلّها في باريس، لأوضّح أنّ تعريفاتي التقنية تقوم على أسس متينة من الدرس العميق المطوّل. لو كان الأمر مع أحد الزّملاء من ميداني لما احتجت إلى ذلك التّوضيح. ثمّ إنّه بقبوله مراجعة عملي كان على السيد دي سلان أنّ يتذكّر ما هو له وما هو لي. كان عليه أوّلاً أن يقتني معجمًا في الطبّ يجده على قارعة الطريق. أقدّر مثلكم السيد دي سلان. إلّا أنّى عشت حوالي عشرين سنة في الجزائر ودرستها كما لم يدرسها إلّا قلّة. عندى هنا في مكتبتي ابن خلدون والبكري. لكنّ هذه الأعمال لا علاقة لها بالطبّ ولا حتّى بتاريخ الطبّ العربي، عند قراءة المقدّمة لاحظت أنّ السيد دي سلان

خلط بين الطبيب الرّازي وفخر الدّين الرّازي، وبين الجرّاح الزّهراوي وتلميذه مسلمة إلخ [...]. إنْ حدّثتكم عن هذا فلأنّ هناك نقاشات حدثت عن هذه الشخصيات.

وهذا ما حدث لكلّ المشهورين الجُهّال (اسمحوا لي بالكلمة) الذين غامروا بالدخول إلى مجال الطبّ مثل دي هربلو D'Herbelot[1] الذي أدرج رسالة في علم الجبر ضمن مقالة الكسور لإبقراط. كذلك أخطأ بيتس دي لا كروا Pétis de La Croix[2] بمقالة عن الأعصاب. كزيري قام بالعديد من الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم أخذها عنه بكلّ ثقة وستنفلد Wüstenfeld[3]. سوماز وبوشار Bochart[4]، بالرغم من نبوغهم العلمي المدهش، لم تكن عثراتهم أقلّ لأنّهم لم يدرسوا علم الطبيعة إلّا في الكتب

(1) بارتيلمي هِرْبلُو (1625- 1695 م)، هو مستشرق فرنسي، له "معجم عربي-فارسي-تركي" وبادر بترجمة "تاريخ المسلمين" إلى الفرنسية وأتمها جالان.

(2) بتيس دي لا كروا (1653-1713م)، مستشرق فرنسي، له "قواعد اللغة العربية".

(3) وستنفلد (1808-1899م)، هو مستشرق ألماني. تخصّص في التاريخ والأدب.

(4) سَمَوْءَل بوشار ولد في روان Rouen 1599 وتوفي في كايان Caen في 1667 مستشرق فرنسي متخرج من المدرسة التّوراتية، يعرف عديد اللّغات (عربية /سريانة /كلدانية/ لاتينية/ يونانية/ فينيقية) عُرف على أنّه علّامة زمانه يقول عنه بيار دانيال هوان Pierre Daniel Huet "لم يعرف في القرن الذي عاش فيه وحتّى ما قبله إلّا القليل من العلماء الّذين يمكن مقارنة علمهم بعلمه" وأهمّ ما يُسند إليه التعريف بالفينيقيّة ودراسة الحيوان في الكتاب المقدّس.

فقط. فلو علم المسكين بوشار من علم النبات ما يتعلّمه طالب السّنة الأولى في الطبّ.. لم يقم بما قام به من خلط فيما يتعلّق بكريئونيم Kriiounim[1] الواردة في الكتاب المقدّس التي كانت تباع غالية الثمن في الكرسي الأسقفي بـ"سماري" Samarie[2] [...] فقد رأى ببلاهة "حمصًا" فيما هو ليس إلاّ "حزازًا" "Lichenée" وهو حسب رأيي Torbat el asel (تربة العسل) عند العرب، ممّا لم يتفطّن إليه أحد حسب ما لاحظت. بعضهم مثل دوم كالميت Dom Calmet[3] مازال في "الحمص" والآخر منذ سانت جيروم St Jérome[4] في "سلح الحمام". ضمن هؤلاء الأسماء الثلاثة التي ذكرتها يوجد اسم احترمه، وهو السيد دي ساسي في كتابه (عبد اللّطيف) فبالنسبة إلى مسائل التاريخ الطبيعي، هو مثال ليس من ناحية وضوح العرض فحسب، وهو طابع للفكر الفرنسي، بل من حيث التبحّر العلمي الغني النّقي. أقول له عن طيب خاطر: "أنت أهل للتقدير".

---

(1) كلمة عبرية كتبها بوشار chirijonim أو dibjonim.

(2) مدينة السامرية عاصمة مملكة إسرائيل بالشمال قديما، قريبة من مدينة نابلس.

(3) دوم كالميت (1672-1757م)، هو مفسّر وعالم من لورين، من البنيدكتيين Les Bénédictins من جماعة سانت فان وسانت هيدولف.

(4) جيروم (340-420م)، كان قسيسا وعالم عقيدة ومؤرخا ومترجما الكتاب المقدس ومترجم وشاعر وكاتبا وعالما بالكتاب المقدس. كلفه البابا بإنجاز ترجمة للأناجيل من اليونانية والعبرية إلى اللاتينية.

حين نتصفّح القسم الطبّي من المخطوطات العربية في باريس نلاحظ أيضًا عددًا وافرًا من أخطاء سوء الفهم. فالعناوين المتّخذة لا تمثّل الأطباء على الإطلاق ولا الكتب الأصول المعروفة. يمكنني أن أحدثكم طويلاً في هذا المجال، ولكن يجب الاقتصار على القول بكل بساطة: إنّ لكل اختصاص لا بدّ من رجل مختصّ، وأظنّني ذلــك الرّجل. فمنذ أربعين سنة وأنا أمارس الطبّ، ومنذ 35 سنة أهتمّ بالطبّ العربيّ. فالمجلّة الطبية الجزائرية منذ تأسيسها؛ أي منذ 20 سنة قلّ ألّا تجد فيها ترجمة لي في الطبّ أو في المؤسّسات الصحية.. إلخ. أكتب أيضًا عن تاريخ الطبّ العربي في جريدتين بباريس. أمّا المادة الطبيّة فهو الكتاب الثامن الذي ترجمته وهذا الذي تمّ نشره أخيرًا، وكان قد نُشر منذ اثنتيْ عشرة سنة، هو أقلّ الكتب قيمة[1]. ترجمت أيضًا داود الأنطاكي والكتاب الثاني من قانون ابن سينا ترجمة نقديّة أكثر إجهادًا ممّا فعلته مع ابن البيطار، فهذا الأخير كان يعطينى حلولاً لا يمتلكها الآخران. بذلت قصارى الجهد لتكون بين يديّ المؤلّفات العامّة والترجمات إلى اللّاتينية، ونصوص المفسرين ومؤلفات النباتات المحلية، وكتب الرّحالة إلى المشرق.. إلخ... وتعليقاتي على ترجمة ابن البيطار أحسن دليل على ذلك.

منذ ثلاث سنوات وأنا منشغل بتاريخ الطبّ العربي فقط، والمجلّد الأوّل من هذا العمل الذي سيكون جاهزًا للنشر في

(1) يقصد كتاب "كشف الرموز"، لعبد الرزاق الجزائري.

مجلدين، وأنا بصدد مواصلة تاريخ الطبّ العربي بالغرب. ثمّ إنّي لم أكتب تاريخًا جافًّا أو قائمات ببليوغرافية مثل وستنفلد. أنا طبيب، وكتبت للأطبّاء لا كالمؤلّف المذكور أعلاه كَتَب لمستشرقين يبحثون عن بعض المعلومات. اللّمحة التي كتبتها عن أبي القاسم هي نموذج لأسلوبي في الكتابة، وكلّ العظماء الذين تقدمونا عاملتهم بالمنهج نفسه. من أجل كتابي "تاريخ الطب العربي" راجعت كلّ مخطوطات باريس وقسمًا هامًّا من مخطوطات الأسكوريال وفهارس المخطوطات.. إلخ، زوّدني ذلك بعناصر تقنية، فألّفت معجما[1]، أنا بصدد إكماله شيئًا فشيئًا أثناء قراءاتي؛ سواء في مختصراتي العديدة أم في مطبوعاتي. اتّخذت منهجًا لكتابة الأصوات (حروفًا وحركات) لكلّ ما نشرته من أعمال، وهو منهج مقبول[2]. فأصلحت المنهج التقليدي دون إسقاطه، وهو منهج لا ينفّر أحدًا ولا يستعمل إلاّ معطيات فرنسية. لابدّ من أخذ نوع القرّاء بعين الاعتبار، وقرّائي هم أطبّاء وعلماء طبيعة فرنسيون. لن أكتب أبدًا "برمكية" Barmekiya لكن Barmekia. لست معلّمًا للبيداغوجيا أو اللّسانيات، ولكني أوفّر موادّ لتاريخ مهنتي، وبالنسبة إلى علماء اللّغة فهارسي وعناوين فُصولي. لا أقبل كذلك المعطيات الإنجليزية أو الألمانية [كذا]، ولن أستعمل

(1) لم يكمل لوكلير هذا المعجم ولم ينشره. ونحن بصدد العمل عليه وتجميع المادّة المكوّنة له والمبثوثة في كلّ أعماله لنشره.

(2) حسب رأيه الخاص القابل للنقاش.

أبدًا الصوت "W". السيد دي سلان غيّر كلّ هذا دون استشارتي ممّا عَطَّل النشر وحال دونه. والحال أنّ فهارسي مرتّبة وحسنة التّرتيب[1]. ثمّ إنّى عدّلت ملاحظاتي فقد لاحظت عند سُنذيمر حوالي الألفي خطأ، لم أستطع الإشارة إليها جميعًا؛ بل أشرتُ إلى عدد كبير منها لكنّي لم أجد ملاحظاتي في مكانها. فهل هذا وقت الانزعاج من فرشاو Virchow[2]. تقولون لي إنّ السيّد دي سلان هو ضامني لدى الأكاديمية، ويبدو لي رغم ذلك أنّني قادر على الاستغناء عن ضمانته لي في ميدان الطبّ خصوصًا ومجال المادّة الطبيّة حيث النصّ هو على قدر كبير من البساطة. ولو تعلّق الأمر بشيء آخر لن يكون لي من الزّهو ما يجعلني أرفض هذه الضمانة. والأجدر بي هو أن أطالب بالتعاون المتمثل في مساهمة أحد زملائي القدامى في جمعية علم النبات وبعضهم من أكاديمية العلوم. ألا يمكن إرسال بعض الأعمال إلى السيد كونسون M.Cosson[3]، أو السيد بلانشون Planchon[4]، أو

(1) على حدّ رأيه الخاصّ في فهارسه والحال أنها منقوصة إلى حدّ كبير في رأينا.

(2) الأستاذ رودولف فرشاو (1821–1902)، كان شديد القسوة مع الفرنسيين زمن الحرب بين فرنسا وألمانيا.

(3) إرنست سانت تشارلز كوسون (1819–1889)، هو عالم نبات فرنسي، كان عضوا حرّا بأكاديمية العلوم.

(4) قوستاف بلانشون (1833–1900)، أستاذ "المادّة الطبيّة" في المعهد الأعلى للصيدلة بباريس.

السيد فورنيي Fournier[1] إلخ، فهم علماء ونوابغ سيطعّمون عملي ويستكملونه بالخصوص في الكثير من النقاط الغامضة.

منذ مدّة أرسلت إلى أكاديمية النقوش عملاً في مسألة هامّة وجديدة كلّ الجدّة، هو بحث عن الساعات الأخيرة لمدرسة الإسكندريّة باعتماد وثائق عربية، ظننت أنّي أقوم بواجب الاعتراف بالجميل، واقترحت أيضًا لمحة عن أبي القاسم نشرتها أخيرًا، كذلك النبذات المتعلّقة بجيرار دي كريمون وقسطنطين الإفريقي اللَّذَيْنِ أنا بصدد العمل عليهما. فلم أتلقّ حتّى شرف الإعلام بالوصول. انشغلت منذ زمن بعيد بدفع الدّين الذي فرضه عليّ احتلال الجزائر حتّى قبل أن يصدع بالقول السيد دارمبارڤ متوجّهًا إلى الطبّ الفرنسي:"Exoriare aliquis"[2]. وهبتُ الطبّ العربي وقتي ومالي وصحّتي، ضحّيْت بنشاطي المهني وبالعديد من الأشياء الأخرى التي لها مكانة عظيمة في الحياة. وهبت نفسي لهذه المهمّة وسأسخّر لها نَفَسي الأخير وفِلْسي الأخير

(1) الدكتور فورنيي (1834-1884)، عالم نبات مشهور.

(2) هذا جزء من بيت الشعر رقم 626 من إنييد "Enéide" للشاعر فرجيلVirgile:
Exoriare aliquis nostris ex ossibus ultor
Lève-toi, inconnu né de mes os, mon vengeur
ألا انهض أيّها المجهول المولود من عظامي، يا الآخذ بثأري.
ولا يخفى ما في هذا الشاهد من نية رد الاعتبار للطب العربي وفضله على تطوّر الطبّ في القرن التاسع عشر. فلولا ذلك التراث العربي الذي رمزت إليه العظام لما كان بذلك المستوى. فهذا اعتراف من لوكلير لم يكن موجودا إلا عند القلّة القليلة من معاصريه.

على قلَّتِه عندي[1].

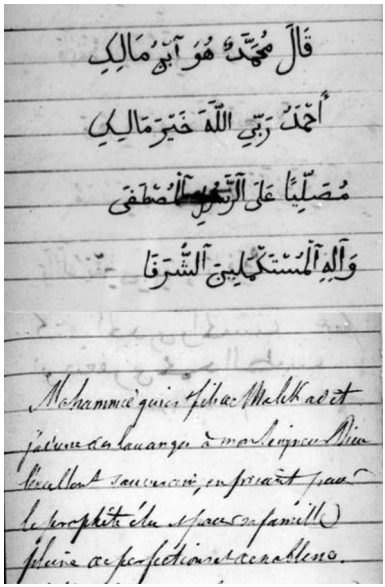
قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكٍ
أَحْمَدُ رَبِّي اللَّهَ خَيْرَ مَالِكِ
مُصَلِّيًا عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
وَآلِهِ الْمُسْتَكْمِلِينَ الشَّرَفَا

Mohammed qui est fils de Malik est
l'auteur de louange à mon Seigneur Dieu
seulement souhaitant, en priant pour
le Prophète élu et sa famille
pleine de perfections et de belles.

نموذج من كتابة لوكلير باللغتين العربية والفرنسية من كراس له في تعليم العربية أنهاه بجزء من ألفية ابن مالك في النحو مترجمًا إلى الفرنسية (مخطوطة Arabe 6456)

(1) تمّ نشر ترجمة كتاب الجامع لابن البيطار، سنة 1876 بعد إصلاح ذات البين لكنّ "موهل" لم يره لأنّه توفي.

رابعًا ـ مقتطفات من آراء بعض النقاد الغربيين والعرب في أعمال لوكلير

فيكتور لوري Victor Loret[1]

«سيدي، لقد تأثرت عميق التأثر للطف فكرتكم في الإعلان بأنفسكم، لا عن طريق رسالة تافهة، عن مصيبة الفقد القاسية التي ابتليتم بها أنتم وأهلكم. واسمحوا لي بالتعبير من كلّ قلبي عن مشاركتكم أحزانكم لما أصابكم من الألم. كنت أعرف الدكتور لوكلير منذ زمن بعيد بفضل أعمالة الرائعة قبل التواصل معه بالمراسلة. توثقت علاقتنا بسرعة لاسيّما وأنّنا كنا الباحثَيْن الوحيدَيْن في فرنسا اللَّذَيْنِ اهتمّا بالطب وعلم النبات العربيين. وشخصان يتقاسمان الشغف العلمي نفسه يشعران سريعًا بالانجذاب كلاّ منهما نحو الآخر. سرعان ما وجدت في الدكتور لوكلير، زميلاً على قدر من اللّطف لا ينضب وضع على ذمتي، بكرم وطيبة لا يمكنني أن أنساهما، علمه الواسع ومجموعة هامّة من وثائقه. هكذا أقول لك كم أحسّ بمرارة الفقد وهي بمقدار الخسارة التي خسرها العلم لِغياب شخصه. وأتمنى مع ذلك أنّه أكمل قبل الوفاة، المجلّد الثالث من

(1) فكتور كليمنت جورج فيليب لوري (1859–1946م) كان عالم مصريات فرنسيا وأستاذا بكليّة الآداب بليون. كتب في 14 أفريل 1893 هذه الرسالة للتعزية إلى ابن أخت لوسيان لوكلير ألبار فرتال Albert Virtal.

كتابه"تاريخ الطبّ العربي" الذى كان أحيانًا يحدثني عنه والذي كنت أنتظره بفضول وبفارغ الصبر. على كلّ حال، أنا في خدمتكم إن كان قد ترك عملاً مّا يحتاج إلى قدر من التعديل، فأعمال الدكتور لوكلير هي من تلك الأعمال التي يكون من المؤسف أن نحرم منها العلم.

تقبلوا، سيدي، مع التعزية المخلصة وافر التقدير».

باربيي دي مينار Barbier de Meynard[1]

«لم يكن الدكتور معروفًا إلا عند قلّة قليلة منّا؛ فهو طبيب رئيس في جيش إفريقيا قديما، نال التقاعد منذ زمن بعيد وكان يقضى أغلب السنة في الرّيف [كذا] حيث مسقط رأسه. كان من بين الفاعلين ذوي القيمة الأكثر حُضورا بالمجلة الآسياوية. نحن

(1) باربيي دي مينار (1827-1908م) ترجم مروج الذهب للمسعودي، الفهرست لابن النّديم، أطواق الذهب للزّمخشري، نوابغ الكلم، جزءًا من كتاب الرّوضتين لأبي شامة، ديوان صريع الغواني لمسلم بن الوليد الأنصاري. هو رئيس أكاديمية عنابة أعلن عن وفاة لوسيان لوكلير في اجتماع 20 جوان 1894، فأغلب الجمعيات التي نشط فيها لوكلير لم تسمع بوفاته إلا بعد سنة 1894. وصدرت كلمته في منشور رقم 27 لأكاديمية عنابة 1895 ص 22 وهو تأبين لا يخلو من الأخطاء حتى بالنسبة إلى اسم كتاب تاريخ الطبّ العربي أو بالنسبة لأحد العلماء المترجمين وفيه إنكار لفضل العرب الذي عمل لوكلير على إبرازه فعمد هذا المستشرق إلى طمسه. وبدا تناقضه بين المدح والذم واضحا ودالّا على غروره وقلّة صدقه في تفاعله مع الخبر.

مدينون له مع هذا بمساهمات علمية أخرى كبحثه في ترجمة ديوسقوريدس إلى العربية من طرف الطبيب السّوري حنين[1] وبحثه عن أبي القاسم [كذا]، ودراسة تحضيرية [كذا] عن ابن البيطار، وبحث عن أبولونيوس دي تيان Apollonius de Thyane[2] [كذا]، والعديد من المقالات النقدية للكتب.

"تاريخ الطبّ في الشرق"[3] [كذا] يبقى رغم نوع من الاختلال في تخطيطه وبعض الأخطاء البسيطة، عملا مفيدا يُراجع لمعرفة الحركة العلمية الكبيرة، التي نشرها الأطباء والمترجمون السّريان والتي نقلت علوم اليونان إلى أوروبا في القرون الوسطى [كذا].

معجم [كذا] ابن البيطار الذى كُلّف [كذا] السيد لوكلير بترجمتــه من العربية لأكاديميــة النقوش والمدوّنات سنة 1877 [كذا] ليس أقلّ أهميّة لدراسة علم النّبات وعلوم الأدوية الشرقيّة، وهو أيضًا منجم للمعلومات لمعاجمنا العربيّة التي مازالت شديدة النقص فيما يتعلّق بمصطلحات العلوم الطبيعيّة. الجمع بين اختصاصين على قدر من الاختلاف كبير عند نفس العالم هو شيء نادر، ونحن مدينون دومًا للدكتور لوكلير الذي أعطى

(1) المترجم هو اصطفان بن بسيل وحنين راجع الترجمة فحسب.

(2) الصحيح هو de Tyane فيلسوف يوناني ولد سنة 16 بعد المسيح بتيان Tyane وتوفي بإفيس Ephèse ما بين97 و98 م.

(3) قال Histoire de la médecine en Orient، لا تاريخ الطبّ العربي.

لدراساته الطبية ومعرفته للّغة العربيّة هذا الاتجاه المفيد جدًّا. فقد واصل معنا بكفاءة ربّما أكبر، بحوث سنقينتي وكليمون مولي Clément-Mullet[1] وسيبقى اسمه مقترنًا بما يشرّف تاريخنا، وعسى أن يوجد من يتابع هذه المسيرة العلميّة العظيمة في صفوف جيشنا بالجزائر إذ به اليوم وجوه مُعتَبَرة».

كلمة إرنست مارسيي Ernest Mercier[2]

«يوجد اسم الدكتور لوكلير ضمن قائمة وفيات 1894، [كذا] وهو طبيب أوّل متقاعد، كان عضوًا في جمعيتنا منذ 1861.

وكان الدكتور لوكلير عضوًا من بين الأعضاء المنتمين إلى القطاع الطبي الجزائري الأكثر تميّزًا منذ ثلاثين سنة خلت، فهو عالم آثار ونبات ومستشرق، وكان موهوبًا بنفس القدر في كلّ

(1) كليمون مولي (1796-1865م)، مستعرب وعالم فلاحة بحث في علم المعادن العربي وفي أسماء الحبوب عند القدامى، وبالخصوص عند العرب، ترجم كتاب الفلاحة لابن العّوام وغيره من البحوث في نفس الموضوع.

(2) إرنست مارسيي (1840-1907م)، مترجم ومؤرخ ورجل سياسية فرنسي (ابن جراح عسكري) شارك في احتلال الجزائر، واصل العمل في الجزائر كمترجم عسكري بوهران ثمّ بقسنطينة. كان سنة 1875 نائب رئيس جمعية الآثار بقسنطينة، وعضوا بالجمعية الآسياوية بباريس1878. تنقل في العديد من الوظائف السياسية، له العديد من الكتابات الهامّة عن الجزائر.

اختصاص. بعد مغادرة شاربونو Cherbonneau[1] سنة 1863 خَلفهُ ككَاتب لجمعيتنا وكُلّف بكتابة التقارير والنقاشات المتعلّقة بالنقوش الأثرية المكتشفة. مقالاته، وعلى الأخص منها المقالة عن ضريح لوليوس Lollius[2]، هي نماذج لسعة معرفته ونزاهته العلميـــة. مع الأسف أُجبر بدوره على مغادرة البلاد سنة 1865 [كذا]. ترجمته لكتاب عالم النّبات العربي ابن البيطار جلبت له تقدير المختصيّن وجوائز مستحقّة عن جدارة [كذا].

تقوم جمعية الآثار بواجب بسيط نحوه بأن تُهدي لذكراه تقديرها عرفانًا وتعاطفًا».

بول دورفو Paul Dorveaux [3]

«في الجزائر، تلك التي جابها في كلّ الاتجاهات، اهتمّ لوكلير، فضلاً عن مهنته، لا بالكتب والمخطوطات العربية فحسب،

---

(1) شربونو (1813–1882م)، نشر ترجماته بالمجلّة الآسياوية. اهتمّ بشعراء العرب وأدبائهم. ترجم المقامة الثلاثية للحريري ومختارات للعمري سنوات 1845 و1846 وترجم ألف ليلة وليلة سنة 1852.

(2) هو كنتوس لوليون أوربكوس Quintus Lollius Urbicus هو جزائري نوميدي ولد في قسنطينة حوالي 110م وتوفي في روما 160م، تَرَوْمَنَ. كان عضو مجلس الشورى متألقا حكم مقاطعة "بريطانيا" التابعة لروما بُني له مقام قرب المدينة الرومانية بقسنطينة تكريما له ولعائلته.

(3) بول دورفو (1819–1938م) مؤرخ وطبيب فرنسي، وهو رئيس مكتبة المدرسة العليا للصّيدلة. كتب السّيرة الذّاتية للوسيان لوكلير سنة 1914، ومنها هذا المقتطف.

بل أيضًا بأهلها وتقاليدهم، بأرضها وبمنتوجاتها، بآثارها ونقوشها، بتاريخ البلاد القديم والحديث.. إلخ.

كتب عن كلّ ذلك كثيرًا من البحوث التي كان بعضها موثّقًا بالصور، منها استخلص مختلف المذكّرات التي نشرها من 1849 إلى 1888 في صحف الجمعيات العالمة التي كان عضوًا فيها: جمعيّة فرنسا لعلماء الآثار، الجمعية الشرقية الفرنسية، الجمعية التاريخية الجزائرية، جمعية الجزائر لعلم المناخ، جمعية الآثار بقسنطينة، الجمعية الآسياوية، جمعية التنافس لإقليم "لي فوج"، أكاديمية عنّابة.. إلخ. إنّ شغف لوسيان لوكلير بالجزائر جعله يُلّقب بـــ"العربي". والدكتور لوكلير مرجع موثوق به في مجال الطبّ وعلم النّبات والحيوان والمعادن عند العرب، كان يُسترشد يوميًا عن المصطلحات الخاصّة بهذه العلوم من طرف أكثر المستشرقين علمًا، ويمتلك ابن أخته السيد ألبار فرتال العديد من رسائلهم، ويمتلك أيضًا رسائل من أطبّاء مشهورين وعلماء آثار متألقين وجّهوها إلى لوكلير، بالإضافة إلى كلّ مراسلات هذا العالم منذ إقامته الأولى بالجزائر. في ذلك الزخم من الرسائل يوجد الكثير منها الهامّة والجديرة بالنّشر».

دانيال قوروفيتش Danielle Gourevitch [1]

التقرير الذى كتبه مفتش الصحّة في 27 ماي 1869

« **القامة** : تحت المتوسّط ، **البنية** : حسنة التكوين.

الكفاءة الجسدية، الضابط هل هو مؤهل للعمل في الجيوش المتنقلّة : حسن التكوين قادر على الخروج في الحملات.

الهيأة : هل للضابط مظهر خارجي حسن؟ هل هو معتنٍ بهندامه؟ مظهره ليس في صالحه إلاّ أنه يعوّض هذا النقص كلّ التعويض بتواضعه وعمله الضخم.

---

(1) دانيال قوروفيتش، Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France, Séance du 23 Avril 1997، نشرية الجمعية الوطنية لعلماء الآثار بفرنسا، جلسة يوم 23 أفريل 1997، محاضرة لها بعنوان "نقولا لوسيان لوكلير طبيب رئيس، عضو الجمعية الوطنية لعلماء الآثار بفرنسا، مؤسّس تاريخ الطبّ العربي (1816-1893)"، تحدثت في محاضرتها عن علاقته الوطيدة بالمستشرق دارمبارڤ وعرضت بعض كلامه في مراسلاته إليه كقوله: "أنا مطمئن تماما لنصائحكم للقيام بأعمال أخرى تكون شديدة الفائدة" و"يسعدني أيضا أن أقوم بترجمة ابن أبي أصيبعة لو تخلّى عنه السيد سنقينتّي"، "عندي هنا بين كتبي كتاب أمورو Amoreux الذي لا يمكن أن أفتحه إلاّ أثار سخطي عليه". وذكرت شهادة دارمبارڤ في لوكلير الموجودة في رسالة له إلى المستشرق الإنقليزي Greenhill قائلا: "لم استطع بعدُ الحصول من السيد لوكلير على الكتابة الصوتية التي طلبتها منه لمدّكم بها. فأنتم تعرفون من خلال ما قلته لكم أنّ السيّد لوكلير ليس سهل المراس". وأهمّ ما جاء في محاضرتها هذا التقرير المذكور أعلاه الذي يزيدنا معرفة بشخصه وأخلاقه ورأي النّاس فيه.

أخلاقياته وسيرته : أخلاقيات وسيرة متميّزة.

هل يعيش في علاقات طيبة مع محيطه؟ علاقات طيبة فهو محبوب جدًّا ومحلّ احترام كبير وتقدير وافر في الكتيبة التي ينتمي إليها.

المعارف العامّة. الثقافة الأدبيّة : اللّغات الأجنبية، الأسفار : له مؤهلات جيّدة للعمل. معلوماته العامّة واسعة جدًّا، يُتقن اللّغة العربية كما اللّغة الفرنسيّة.

المعارف الخاصّة : هل له إلمام واسع أو أقلّ سعة بالأنظمة العسكريّة والمهنية؟ تعوّد على العمليات؟ كفاءات طبيّة أو جراحيّة؟ أعمال عمليّة؟ كفاءة طبيّة أكثر منها جراحيّة. وهو متمرّس بالطبّ ماهر وصاحب ضمير حيّ. ألّف العديد من الكتب المتصلة بالطبّ العربي، وهي ذات قيمة كبيرة تشرّفه وتجلب له كلّ التقدير.

كيفية تقديم الخدمات : موظف ذكيّ يقدّم خدماته بنفس القدر من الحماسة والتفاني، أعماله في عيادته لا تمنعه من المواظبة على الاهتمام بنفس الحماسة والتفاني في القسم الصحّي لكتيبته. من المؤسف أنّ تواضعه وحياءَه حالا دون تقدّمه للاختبارات المطلوبة للانتقال من طبيب أوّل في الخدمة العسكرية إلى الرتبة نفسها بالمستشفيات.

وتعلّق الباحثة على هذا التّقرير بقولها : "هكذا صار ذلك الطبيب الدميم القصير القامة الذي لا طموح له في الترقيات، ابن الفلّاح الفُوجي، ذو الطّبع النّفور الحادّ، لكنه الموسوم أيضًا

بالكرم والتشبث بالمبادئ، مرجعًا معتبَرًا في مجاله. تقاعــد في الخامسة والخمسين[1]، وسخّر ما بقي من عمره (22 سنة) لأبحاثه الحبيبة إلى قلبه بكلّ حريّة. أفضت أبحاثه بالخصوص إلى نشر كتابه "تاريخ الطبّ العربي" سنة 1876 ولكن على حسابه الخاصّ؛ فمعرفة بعض وجوه سيرته الذاتية مكنتنا من تقدير قيمة عمله التأسيسي كلّ التقدير. فكتاب سنة 1876 رغم صعوبته يبقى لا غنى عنه إلى اليوم عند كلّ المؤرخين المهتميّن بالطبّ العربيّ "».

جونوفياف ڤسدون Geneviève Guesdon[2]

«[...] إنّ العديد من ترجماته، مثل الكتاب الثاني من قانون ابن سينا لم ينشر. وقد وسّع لوكلير مجال اهتمامه إلى كلّ العلوم العربيّة وأيضًا إلى ترجمة اللغات القديمة إلى العربية ومنها إلى اللّاتينية. توجد بُحوث محفُوظة في مكتبة فرنسا الوطنية موضوعها الإسلام، وأيضًا خرافات كليلة ودمنة وتاريخ علم الفلك والرّياضيات والكيمياء والفلاحة والتاريخ الطبيعي للعلوم بالشرق لعلّها كانت مشاريع للنشر.

---

(1) ذكرت أنه وفقا لقانون المالية (26 جانفي 1892) صار مرتبه 4000 فرنك.

(2) جونوفياف ڤسدون، جامعية خبيرة في اللغة والآداب العربية بقسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية الفرنسية. تتقن عدة لغات. مقتطف من مقالها عن لوكلير المنشور بمعجم المستشرقين الناطقين باللّغة الفرنسيّة لفرنسوا بويون François Pouillon، II س م م – كرتلا *Dictionnaire des Orientalistes de Langue française*, II SMM-Karthala.

كتابُه الأساسي، هو "تاريخ الطبّ العربي" الصادر في 1876 والذي مازال مرجعًا لا يستغني عنه.

[...] بالإضافة إلى محتواه العلمي والتّاريخي، فإنّ مجموع أعمال لوكلير موسومة بإعجابه الكبير بالثّقافة العربية القديمة التي كُتبت فيها أعمال علميّة أكدّ على طرافتها وتفرّدها على عكس التيّار الذي كان لا يعترف لها إلاّ بدور الوسيط في نقل المؤلّفات اليونانية، وهو يُعبّر عن تعاطفه الكبير مع تلك الثقافة بسبب الظروف الصّعبة التي تعيشها في القرن التاسع عشر. فالعلم، في رأيه، كوني ومحايد لذلك يجب أن يكون وسيلة تقارب بين الشعوب، ثمّ إنه يُبدي أسفه لعدم اهتمام معاصريه بالعلوم العربيّة وبالخصوص بالطبّ. ويومياته التي كتبها عن سفره إلى الجـــزائر مرورًا بأفينيون Avignon متّجها إلى تولون Toulon سنة 1840، والمحتَفَظ بهـــا منقوصةً تشهد على ثورته ضدّ عنف الاستعمار الفرنسي في السّنوات الأولى، سواء العنف اليومي المسلّط على أهالي البلاد، والذي شهده منذ حلوله بمدينة الجزائر، أو عنف الحرب عند احتلال الجيش الفرنسي لمِليانة.

سيمون لافلوريال ذاكري Simone Lafleuriel Zakri[1]

تقول عن ترجمة لوكلير لابن البيطار بعد استعراضها ثلاث ترجمات رديئة: «إنّها الترجمة الوحيدة من بين هذه الترجمات التي تكاد تكون كاملة لأنّها جدية ومشروحة ومعلقّ عليها ونقدية، وهي إذن معترف بها من الجميع على أنّها مرضيّة، [...] بالرغم من أنّها ليست كاملة لأنّه أسقط في جزئيها الثاني والثالث شواهد لديسقوريدس وجالينوس اعتبرها تكرارًا. [...]. "إذن بفضل عمل لوكلير بالخصوص صار لدينا اليوم فكرة دقيقة عن أكثر من ألف مادّة من أصل حيواني أو معدني، وبالخصوص نباتي، جدولها العالم الأندلسي وذكر استعمالاتها في الطبّ وفي الجراحة وفي التغذيـــة، وكذلك أيضًا في الصنّاعات، التقليدية منها بالخصوص، وهـذا منذ أقدم الأزمنة إلى القرون الوسطى". [...] والجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذي طُبع أخيرًا في نصّ

---

(1) مقال سيمون لافلوريال ذاكري *D'Ibn Baytar à Lucien Leclerc : deux honnêtes hommes au service de la pharmacologie arabe et mondiale*، "من ابن البيطار إلى لوسيان لوكلير: رجلان صادقان في خدمة علم الصيدلة العربيّة والعالميّة"، باريس جانفي 2012.
ذكرت سيمون الذاكري أنّ لويس السادس عشر Louis XVI شجّع على جمع المخطوطات القديمة وترجمتها. وبدأ عمل المستشرقين من القرن الـ17 وتطوّر في القرنين الـ18 والـ19 والذى دعّم أعمالهم إنشاء جمعية الدراسات الآسياوية ومجلّتها "المجلّة الآسياوية" التي اجتمع حولها خيرة العلماء الباحثين.

فرنسي معلّق عليه بدقّة، هو العمل الوحيد الذي لم يصدر على نفقة لوسيان لوكلير، فقد اضطُّـرّ فعلاً بالنسبة إلى أعمال أخرى إلى بيع أرض ورثها عن عائلته في "لي فوج" بفيل -سور- إلوّن قرب دمشق أي "دمشق تحت الغابة" Damas sous-bois بفرنسا! ».

نجيب العقيقي[1]

«الدكتور ليكلر (1846-1893) .Leclerc, L طبيب أكبّ على درس التاريخ وأصول اللّغات معنيًّا بالطب العربي خاصّة، وقد بحثه في مقالات مسهبة، وكتب تاريخيّة، وترجم منه ونشر عنه الكثير. آثاره: كتاب الترجمات العربية (باريس 1867)، وشـــرح كشـــف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب للجزائري (1874)، وتاريخ الطبّ العربي، وفيه الكثير من ابن أبي أصيبعة في جزئين (1878)، وترجم أقسامًا من كتاب التصريف للزّهراوي (1861)، وبمعاونة لينوار: الجدري والحصبة للرّازي (1866). وكان بولي Paulet قد ترجمهـــا إلى الفرنسية (باريس 1863)، ومفردات ابن البيطار (1878-83، فجاءت أفضل من ترجمه زونتايمر الألمانية شتوتجارت 1840-42-60)».

---

(1) نجيب العقيقي (1916-1982م) هو أديب وكاتب نصراني، من أهل لبنان. تعلم في المدرسة الوطنية وعمل في الصحافة. رحل بعدها إلى مصر واشتغل بالتدريس، كما عمل بالإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية. توفي بالقاهرة. له كتاب "المستشرقون" موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراسته لهم على مدى ألف عام.

عبد الرؤوف خريوش[1]

«24- الدكتور ليكلر: Leclerc (1846-1893). ترجم العديد من كتب الطبّ، من أهمّها كتاب التصريف للزّهراوي (كذا) في العام 1861، وكتاب تاريخ الطب العربي في العام 1878، والجدري والحصبة للرّازي (أبو بكر محمد بن زكريا ت311 هـ) في العام 1866».

خليد كدري[2]

«يقف في رأس الكتب التي اهتمّت بالتراث الطبّي العربي، كتاب "تاريخ الطب العربي" الذي نحن بصدد مراجعته ودراسته، والذي ألفه المستشرق الفرنسي لوسيان لوكلير، ونشرهُ في باريس عام 1876. وهو الكتاب الذي بقي على الرغم من مضيّ

(1) عرّف نفسه بأنه مشرف أكاديمي متفرّغ، منطقة طولكرم التعليميّة جامعة القدس المفتوحة، فلسطين.

(2) خليد كُدري: مترجم وباحث مغربي مولود في 1966، متحصّل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة محمّد الخامس بالمغرب، متخصّص في المنطق والابتسيمولوجيا وتاريخ العلوم. مزدوج اللّغة العربية والفرنسية. أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة شعيب الدكالي الجديدة المغرب، من منشوراته: ترجمة كتاب "معجم الأديان" لمرسيان اليادوبيتر، بيروت-لبنان، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع 2018، "قراءات في مشروع محمّد عابد الجابري الفكري" بالاشتراك، الرباط، دار الأمان 2017...

أكثر من قرن على صدوره، أجود ما أُلّف في هذا الموضوع الهام من موضوعات الحضارة العربية.

نقول: الكتاب أضخم مؤلف في موضوعه، إنّه يقع في مجلّدين ضخمين تصل صفحات كل منهما إلى أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط، وهو مقسّم تقسيمًا منطقيًا، ومتّبع فيه المنهج العلمي السليم الدقيق. فالكتاب يضمّ سبعة أبواب[1]، سمّى المؤلف كلاً منها كتابًا، تتناول تاريخ الطب العربي حسب العصور، منذ العصر الجاهلي إلى أوائل النهضة العربية الحديثة، مع مقدمة وخاتمة بالطبع. تصدرت الكتاب مقدمة تتحدّث عن الحضارة العربية وعن الفتوحات العربية، وعن انفتاح العرب على علوم من سبقوهم، واقتباسهم الطب عن الإغريق وغيرهم. ثمّ تحدث بشكل مفصل عن المصادر التي استقصى منها المؤلّف مادّة كتابه. مع تقييم هذه المصادر، وبيان مزاياها والمآخذ عليها. والكتاب، أوسع مصدر تحدث عن الطب العربي، وأرّخ له في اللغات كلّها، وهو أكبر مرجع لتراجم الأطباء العرب والعلماء العرب الذين أسهموا في تأليف كتب طبية. والكتاب يُعنى بقضية الترجمة، ترجمة تراث الإغريق إلى اللغة العربية في العصر

(1) لم يذكر مؤلّف هذا المقال الكتاب الثّامن وعنوانه: العلم العربي في الغرب لأنّه يختص بالترجمات والمترجمين إلى اللّاتينية رغم أنّه لم يخلُ من تعليقات لوكلير الهامّة.

العباسي، وترجمة التراث العربي إلى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بعد اتصال الغرب بالحضارة العربية في الأندلس، وفي صقلية، وخلال الغزوات التي سُميت خطأ باسم الحروب الصليبية. والكتاب، أخيرًا، مكتوب بروح التقدير والإعجاب والإكبار، حبّ للعرب، وإعجاب بتراثهم الطبي، وإكبار لموقفهم من علوم الأمم التي غلبوها بعد الفتوحات العربية، فالعرب عند لوسيان لوكلير، شعب ذكي، لم تمنعهم فتوحاتهم لبلاد امتدت من الهند حتى الأطلسي، من أن يتتلمذوا على من غلبوهم، ويترجموا علومهم ويجعلوهم قدوة لهم. وكان ذلك في رأي المؤلف معجزة، لأن العرب أنقذوا العلوم من الضياع بعد أن دمرت الشعوب الهمجية الدولة الرومانية. وأضاف العرب إلى ذلـــك إبداعهم في هذه العلوم إبداعًا عظيمًا تجلى لا سيّما في هذا التراث الطبي العظيم، الذي كان موضوع كتابه، والذي أخذه الأوروبين قبيل عصر النهضة.

[...] والذي يؤسف له، أن يبقى هذا المؤلف الهام جدًّا بعيدًا عن متناول القرّاء العرب الذين لا يتقنون الفرنسية، وألّا يُطبع طوال قرن سوى مرتين، وألّا يُترجم إلى اللغة العربية حتّى الآن، على الرغم من وعود كثيرة أطلقها كثيرون للقيام بهذه الترجمة، وعلى الرغم من أنّ كتبًا أخرى أقلّ قيمة منه، وكتبًا أخرى تتحامل على تراثنا قد تُرجمت مع الأسف، إلى اللغة

العربية. [...] وسيكون القارئ العربي سعيداً حين يجد بين يديه وباللغة العربية واحداً من أهمّ الكتب التي أرّخت للطب العربي، إن لم يكن أهـمّها على الإطلاق»[1].

(1) نشر د. خليد كدرى في مجلّة الحكمة، سنة 2017 ترجمته للقسم الأوّل من كتاب تاريخ الطبّ، وهي ترجمة نقدية متميّزة وغنية جدًّا بهوامشها التي فيها إصلاح بعض الأخطاء التي وقع فيها لوكلير بالإضافة إلى إنارة بعض النّقاط الغامضة. ويبدو أنّه لم يطلع بعد على الترجمة المصرية عن جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا مركز تحقيق التّراث العربي، بالقاهرة ط1، 2017، للدكتور أسامة أحمد عبد الجليل وهو مدرس بقسم اللغة الفرنسية بكلية اللغات والترجمة. ونحن على أبواب إنهاء هذا العمل في نوفمبر 2020 سررنا بصدور ترجمة جديدة للكتاب إلى العربية أعلنت عنها مايا الحاج في موقع النّهار العربي بتاريخ 2020/11/5 واعتبرت الكتاب موسوعة. صدر في 1424 صفحة عن "دار البيروني" وقد أنجزها د.عدنان حداد ود.ديما حمدان. لم نطلع على الترجمتين لنبدي رأينا فيهما كما فعلنا مع ترجمة د.خليد كدرى.

الخـاتـمة

إن تعريف نجيب العقيقي بلوسيان لوكلير Lucien Leclerc تعريف لا يخلو من نقائص خطيرة بداية من إهمال ذكر اسمه والاكتفاء بالحرف الأول منه، أمّا اللقب فهو محرّف "ليكلر" بدل "لوكلير" بالإضافة إلى الخطأ في تاريخ الميلاد إذ قال 1846، والحال أنّه ولد 1816، ثمّ بعد ذلك أعطى بحوثه منحى لغويًا دون توضيح، والحال أنّها في تاريخ الطبّ ومصطلحاته العلمية. ويذكر عنوانًا لكتاب نسبه إليه "كتاب الترجمات العربيّة"، ولم نجد له هذا الكتاب، كما تحدّث عن شرح كشف الرّموز، والحال أنّ لوكلير ترجمه وقدّم له وعلّق عليه. واتهمه ضمنيًّا بالانتحال مرتين عند الحديث عن كتابه "تاريخ الطب العربي"، وعن ترجمته لمقالة الجدري والحصبة للرّازي. أمّا ترجمته للجامع لابن البيطار فقد ذكره بإعادة حكم غيره عليه ولم يبيّن مقدار أهمية تلك الترجمة النقدية المتميّزة.

وفي "معجم أسماء المستشرقين" للدكتور يحي مراد[1]، توسّمنا، لبعد الشقة الزمنية بين الكاتبين، أن يكون المؤلف قد

(1) الدكتور يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص964..

تدارك ما قام به نجيب العقيقي من أخطاء ففاجأنا بنقل ما كتبه العقيقي عن لوكلير نقلا حرفيا بالنقطة والفاصلة والمطة.

ووجدنا في مقال الدكتور عبد الرؤوف خرْيوش الموسوم بعنوان "دور المستشرقين الفرنسيين في نقل الثقافة العربيّة إلى الغرب" بالصفحة الثامنة الرقم 24 تعريفًا مختصرًا بلوكلير لا يخلو من التعميم وقلّة الوضوح دون تدقيق علمي، فضلاً عن أخطاء الاسم وتاريخ الميلاد. ومن السهل القول: إنّ تاريخ لوكلير فيه الكثير من ابن أبي أصيبعة. والحال أنّ هذا التاريخ ليس مراكمة للمعلومات المستقاة من هنا وهناك، ولكنه يتميز بأنّه عملية تأليفية لجميع ما ورد في الكتب الأصول ومقارنة بأقوال الغربيين. فمصادره ومراجعه لها من الغنى القدر الكبير. وفضله على تاريخ الطب العربي كبير إذ أبرز إضافاته وتحدّث عنها بتحدٍّ وتعاطف؛ بل بحماسة في زمن الانحطاط والاستعمار وضياع كلّ تلك العلوم من أهلها. فالمستعمر الذي غزا تلك البلدان أراد أن يبرّر غزوه بأنّه قوّة تنوير تريد الخير لشعوبٍ لا حضارة لها. وبالرغم من استفادته من الحضارة العربية الإسلامية، فقد عمد إلى الحطّ منها بشتّى الطرق[1] المحبطة وبالقول العنصري

(1) فتلك الشعوب لغتهم مجرّد لكنات وغير قادرة على استيعاب العلوم، ودينهم خزعبلات وشعوذات وتقاليدهم خرافات... ووجدناهم يحاربون اللغة العربية والدين الإسلامي والخصوصيات الاجتماعية لتلك الشعوب. انظر القسم التاريخي من أطروحتنا "الكلمات العربية في اللّغة الفرنسية: أصولها وتحولاتها".

بنظرية الأعراق. فالعرب، هم من عرق يكفيه قول الشعر فلا باع لهم في العلم، والدليل على ذلك أنّ ابن سينا وغيره من العلماء ليسوا عربًا... وفاته أن معنى التسمية، هو أنّها حضارة لغتها العربية arabophone جاءت تحت حكم المسلمين ساهم فيها علماء من كلّ الأعراق والأديان والبلدان.

في هذا المحيط العدائي للحضارة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر جاء لوكلير لينظر إليها نظرة موضوعية باعتبارها حلقة من حلقات دورات الحضارة العالمية دون مسلّمات، دون تحقير ودون عداء؛ بل بإنصاف وإعجاب وتقدير وإبراز لفضلها على الغرب فيما ينعم به من نهضة علميّة حديثة. فهو بذلك رمز من رموز "الأنسنة" Humanisme التي تعتبر العلوم عُرىً وثقى بين الإنسانية وقاسمًا مشتركًا بين الأمم بصرف النظر عن الأعْراق أو الأديان أو اللّغات.

ورأيناه يعلنها صراحة في رسالته إلى السيد موهل: "انشغلت منذ زمن بعيد بدفع الدّين الذي فرضه عليّ احتلال الجزائر. وهبت الطبّ العربيّ وقتي ومالي، ضحّيت بنشاطي المهني وبالعديد من الأشياء الأخرى التي لها مكانة عظيمة في الحياة. وهبت نفسي لهذه المهمّة وسأسخّر لها نَفَسى الأخير وفِلسي الأخير على قلّته عندي".

تساءلنا في المقدّمة : أيّ صنف من أصناف المستشرقين هو لوكلير؟ وها هي ذي الإجابة.

أفلا يستحقّ لوكلير بعد هذا أن يُنقش اسمه على مرمر جدار إحدى القاعات الجامعية العربية، أو تُرسم صورته في إحدى ساحاتها تكريمًا لذكراه واعترافًا بما أسداه للحضارة العربية الإسلامية؟

المصادر والمراجع: أعمال لوسيان لوكلير الكاملة[1]

(1) توجد أعمال لوكلير جميعا بالمكتبة الوطنية الفرنسية BnF Gallica بالإضافة إلى ما كان يمتلكه من مخطوطات وغيرها من وثائق يتجاوز عددها الثلاثين: مخطوطات في الطب: 6475 كتاب "الهارونية" لحكم بن مسيح، 6476 ابن الوردي "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، 6469 كتاب بن عزوز المراكشي، 6477 "الروض العاطر" للنفراوي، 6458 ابن جزلة "تقويم الأبدان في تدبير الإنسان"، الكتاب السابع لأبقراط شرح جالينوس ترجمه حنين بن اسحاق، 7281 كتاب "الرحمة في الطبّ والحكمة" للسيوطي؟. 3 مخطوطات مكتوبة باللّغتين العربية والفرنسية، كراس اللهجة الجزائرية رقم 6474، كرّاس رقمه 6456 بخطّ يده فيه قواعد اللّغة العربية الفصحى مع كلام مطوّل عن الحَمَام للعرب القدامى و"التحفَة السّنية في علم العربية" كرّاس بنفس المنهج الرقم 6457. ومن ضمن الأوراق معجم فرنسي-عربي وضع للأطباء والبياطرة والقوابل والصيادلة والعشّابين من تأليف فلوريون فارون (مترجم) Florian-Pharon والدكتور أ.ل برتوران E.L Bertherand (طبيب ومؤسّس للخدمة الطبية بمستشفيات المسلمين بالجزائر وللجمعية الشرقية بفرنسا) المطبعة الوطنية ڤليكا رقم 6459 BnF Gallica.

- رسائل أشار إليها بول دوفو والباحثتان جونوفياف ڤسدون ودانيال ڤورفيتش أكثرها غير معروف لأنّه لم ينشر منها إلّا ما نشره دوفو.

- مخطوطات في الطبّ وتاريخه تمثل الخلفية المعرفية الشاسعة له نشرت ما بين 2017 و2018 و2019 على موقع ڤاليكا هذه أرقامها: 7283/6459/6467/6472/6478/6480/7282/6464/6461/6463/6470/6471/6468/6466/6455/6473/6481/6479/6465. ومخطوط من أربعين صفحة مكتوب بالفرنسية بخطّ يده رقمه NAF 10747 كتب فيه يومياته عن رحلته إلى الجزائر ومروره بأفينيون وتولون وتحدث فيها عن السنوات الأولى لاحتلال الجزائر وعن مليانا بالذات. وسنة 2006 وهبت السيّدة سوليي فرتال Soulier Virtel وثائق أخرى من ضمنها خرائط للجزائر وتونس وحوض المتوسط محفوظة تحت الرقم NAF 28050.

I- الكتب المنشورة :

- في أسباب مرض الغدّة الدّرقية، أطروحة دكتوراه في الطبّ، قُدّمت ونُوقشت في 5 جانفي 1849 في كلية الطبّ بباريس، طبع رينيو 1849، بها 79 صفحة (الصفحة 77 بها الفصل الموسوم بـ"طبغرافيا فيل-سور-إلون).
- "واحات إقليم وهران أو أولاد سيدي الشيخ"، طُبع عند تيسيي Tissier، كتبي- ناشر 1858، مطبعة أ.بورجي A. Bourget نهج القديسة رقم 2. الجزائر (نُشر فصولاً بالمجلة الطبية الجزائرية في 7 أعداد سنة 1857) رقمه LK 637/8.
- "الجراحة عند أبي القاسم الزهراوي Abulcasis". طُبع عند ج.ب بايار 19 نهج هوتفوي باريس جوان 1861، رقمه Med4494 (نُشر في فصول متسلسلة في المجلة الطبية الجزائرية في 1858 و1859 و1860).
- مهمّة طبية بإقليم القبائل مع رسم لخريطتها، ج.ب بليار J.B Baillière، 1864 (الجزائر مطبعة الأخبار ج.بروك J. Breucq وكيل). IV 251 صفحة مع خريطة جغرافية (نُشر فصولاً في المجلة الطبية الجزائرية في 1862-1863 و1864).
- مقالة الرازي في الجدري والحصبة، بالاشتراك مع لونوار، نشر بليار باريس 1866 (نُشر فصولاً في المجلّة الطبية الجزائرية في 1864-1865).
- "كشـف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" تأليف الشيخ عبد الرزاق محمّد بن حمادوش الجزائري، بليار وإرنست لورو،

باريس 1874، والطبعة الثانية بالاشتراك بين دار البُستان باريس ودار الكتب العلميّة بيروت، 1416هـ- 1996م.

- "تاريخ الطبّ العربي": المجلد الأوّل، الناشر إرنست لورو Ernest Leroux، ط1، باريس 1870، 588 صفحة.

المجلد الثاني، الناشر إرنست لورو Ernest Leroux، ط1، باريس 1876، 527 صفحة.

الطبعة الثانية: نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربيّة، الرّباط، ط2، 1980، في 3 مجلّدات.

- "الجامع لمفردات الأغذية"، المجلّد الأوّل: ملاحظات ومقتطفات من مخطوطات المكتبة الوطنية ومكتبات أخرى نشرها المعهد الوطني بفرنسا، المجلّد XXIII، باريس، المطبعة الوطنية 1877 (in4e) من VIII- XVI، 478 صفحة (طبعة المجلد الأوّل بُدئت في 1874 والمجلّد الثالث والأخير صدر في 1883).

المجلّد الثاني: ملاحظات مقتطفات من المخطوطات، المجلّد XXV، باريس 1881 (in4e) من IV-IV، 492 صفحة.

المجلّد الثالث: ملاحظات ومقتطفات من المخطوطات، المجلّد XXVI، باريس، 1883 (in4e) من VIII، 486 صفحة (صدر المجلّد الأوّل سنة 1877).

الجامع لمفردات الأدوية، نشر معهد العالم العربي، باريس، ط2، 1987.

أعاد نشره فؤاد سزكين، بمعهد تاريخ العلوم العربيّة والإسلامية، جامعة فرنكفورت، ألمانيا، ط3، 1996.

- كتاب "التذكرة" لداود (ترجمة) غير منشورة مخطوط رقم 6462-735ص.
- الكتاب الثاني من "قانون" ابن سينا (ترجمة) غير منشورة مخطوط رقم 6460-491 ص.

II- المقالات : 116 مقالة

1- منشورة بالمعجم الموسوعي الطبّي ديشمبر Dechambre نشرت فيما بين 1868-1888 وعددها 43 مقالة.

2- ما نُشر في المجلات (مرتبة حسب عدد المقالات):

- المجلة الطبيّة الجزائريّة من 1857 إلى 1875 (22 مقالة) فضلاً عن 4 كتب نُشرت في سلاسل ذُكرت أعلاه.
- المجلّة الإفريقية من 1857 إلى 1858 (15 مقالة).
- مجلة الآثار بإقليم قسنطينة من 1857 إلى 1864 (8 مقالات).
- المجلة الآسياوية من 1862 إلى 1888 (5 مقالات).
- المجلّة الأسبوعيــة للطبّ والجراحــة مـن 1874 إلى 1875 (5 مقالات).
- مجلة باريس الطبيّة من 1849 إلى 1876 (3 مقالات).
- منشورات أكاديمية العلوم من 1858 إلى 1869 (3 مقالات).
- حوليات المجتمع الإمبراطوري لعلماء الآثار العتيقة بفرنسا 1853 و1859 (مقالتان).
- حوليات جمعية التنافس بإقليم "لي فوج" 1867 و1869 (مقالتان).
- الجمعية الوطنية لعلماء الآثار بفرنسا 1873 و1883 (مقالتان).

- نشرية أكاديمية عنابة Hippone 1882 و1888 (مقالتان).
- المجلّة الطبيّة بمونبولييي 1854 (مقالة واحدة).
- مجلّة الشرق في الجزائر وفي المستعمرات للجمعية الشرقيّة لفرنسا 1856 (مقالة واحدة).
- مجلة المستشفيات 1860 (مقالة واحدة).
- مجلّة الأطباء العسكريين 1869 (مقالة واحدة).

المـراجـــــع :

المواقع الإلكترونية :

- https://gallica.bnf.fr/
- https://data.bnf.fr/fr/12066952/lucien_leclerc/
- www.idref.fr/028937163#730
- www.alawan.org/author/khalidkodri/
- www.hekmah.org/الطب-العربي-في-صدر-الإسلام-لوسيان-لوكل/
- www.masrawy.com/news/tag/867944/مستشرق-لوسيان-لوكلير
- http://againsterhab.com/?p=89056
- www.antoineonline.com/Livre_موسوعة_تاريخ_الطب_عند_العرب_من_العصر_الجاهلي_الى_لوسيان_لوكلير_عدنان_حداد_9789953595085_de_.
- www.kitabat.com/2016/06/19/تاريخ-الطب-العربي-للمستشرق-الفرنسي-لو/
- www.annaharar.com/arabic/culture/books-authors
- https://alkindi.ideo-cairo.org/manifestation
- ar.wikipedia.org/wiki/نجيب_العقيقي